المشرق

السنة الحادية والثلاثون — شباط ١٩٣٣

القضاء في لبنان

على عهد الحكم الاقطاعي

بقلم وجيه خوري

مستشار في محكمة الاستئناف والتمييز المختلطة

١

في تاريخ لبنان صفحة لم تكتب بعد، هي صفحة قضائه. ولست ازعم انى استطيع نشرهذه الصفحة بكاملها اليوم، لان الموضوع متشعب وعر المسالك يضطرني الى الاخذ به ضمن نطاق محدود. وغايتي ان اضع صورة جلية للقضاء اللبناني في الفترة التي سميتها عهد الحكم الاقطاعي، والتي تمتد من حكم فخر الدين الثاني (١٥٩٥—١٦٣٥) حتى سنة ١٨٦١. فقد كان للبنان خلال تلك الحقبة من الزمن كيان وطني مستقل له نظمه، وسياسته الخارجية والداخلية، وقوانينه، ومحاكمه.

ومعلومٌ ان سورية كانت محجة الفاتحين . فان الرومانيين والاعجام والعرب والافرنج ومماليك مصر والاتراك غزوها ، كلٌ بدوره ، وتركوا فيها نظُمَهم وكثيرًا ما فرضوا قوانينهم على سكانها . فاذا كان نصيب لبنان من هذه الفتوحات ؟

لقد كان لهذه الفتوحات تأثيرها في لبنان ، رغم انه بقي مستقلًا في ادارة شؤونه فلم يكن عرضة لاي احتلال عسكري. ولكن لا بد من القول اننا، اذا تكلمنا عن القانون اللبناني في العهد الاقطاعي، فنحن لا نتحدث عن هيكل تشريعي كامل ، ومحاكم مختلفة الـدرجات . اذ ان القوانين المكتوبة لم يكن لها اثر في ذلك العهد . فالتنظيم القضائي والقوانين التي كانت تطبق فيه لم ترد في نصوص اخرجتها السلطة التشريعية . بل كان هنالك بضعة مبادئ قانونية منشأها العرف والعادة ، وقد يهملها الامراء الحاكمون حسب اهوائهم . وسأحاول استخلاص هذه القواعد من مجموعة المراجع التي استطعت الوقوف عليها.

***

ان التنظيم القضائي يتغيّر بتغيّر التنظيم السياسي والاداري . فيجب اذن ان نقسم تاريخ القضاء اللبناني ، منذ عهد فخر الـدين الثاني ، الى ثلاثة اقسام : فالقسم الاول يبدأ في سنة ١٥٩٥ وينتهي سنة ١٨٤٥ ، والثاني يبدأ سنة ١٨٤٥ وينتهي سنة ١٨٦٤ ، والثالث يبدأ سنة ١٨٦٤ ويمتد حتى عصرنا هذا وسيتناول درسنا العهدين الاول والثاني.

لقد انقرضت الاقطاعية منذ امدٍ غير بعيد اذ نصّت المادة الخامسة من نظام لبنان لعام ١٨٦٤ على مساواة الجميع امام القانون ، وعلى ازالة الامتيازات الاقطاعية عموماً وامتيازات « المقاطعجية » اي الاسياد الاقطاعيين خصوصاً.

اما ظهور الاقطاعية فكان في زمن لا يمكن تحديده . ففي القرن الحادي عشر تسرّبت الى لبنان قبائل رحّل جاءت من فلسطين ومن شمالي سورية ، واستقرت في المقاطعات الجنوبية والوسطى . وهذه القبائل هي قبائل التنوخية ، وبني حمزة ، والبحتريين.

وفي القرن الرابع عشر تقاسمت الاراضي اللبنانية ثلاث طوائف هي :

الشيعية والدرزية والمسيحية. وقد وصف الاب لامنس كيفية ذلك التقسيم قائلاً: استقرت القبائل الرحل في الجنوب بعد ان اجتازت وادي الليطاني الضيق وحملت الى تلك الانحاء مبادئ الشيعية فنشرتها في مقاطعة الشقيف. وكان في استطاعة هذه القبائل الشيعية ان تتوسع في نشر مبادئها في هذه البلاد التي اهملها الاسلام لو لم تصطدم في الشوف بالدعاية الدرزية. فان الدروز اضطروا اثناء الحروب الصليبية ان يلجأوا الى اواسط البلاد وان يتقدموا نحو الشمال، فاحتلوا المتن وهو قسم من البلاد الكسروانية التي تملكتها فئات شيعية بالقوة تارة وبالرضى اخرى. اما الموارنة فانهم استقروا في بلاد جبيل التي ازهرت في عهد الحكم الافرنجي وامتد سلطانهم حتى بلاد البترون وجبل الارز. واختلطوا بالاوساط النصرانية من ملكية ويعقوبية. وكانت لهم اديرة ونظم كنائسية تمتد في البلاد الساحلية حتى جونية. وعلى اثر ظروف سياسية مختلفة تفرد المسيحيون بسكن البلاد الكسروانية، واضمحلت الطوائف الشيعية من الملحقات شيئاً فشيئاً. اما الدروز فانهم استقلوا ببلاد الشوف.

وقد كانت هذه الملل تعيش معاً دون ان يكون بينها اي ارتباط. فكل طائفة مستقلة بادارة شؤونها وبعاداتها وتقاليدها. واندمجت العشائر المختلفة بعضها فألفت ملة واحدة. غير ان كل قبيلة بقيت محافظة على تقاليدها. فكان المقدمون اللبنانيون والامراء الدروز والشيعيون زعماء لهذه العشائر لهم كل السلطات، يفصلون في كل خلاف، ويفرضون الضرائب، ويسوقون الناس الى الحروب.

وكان الامراء المعنيون المسيطرون في الشوف وابعد الزعماء نفوذاً بلا جدال. فقد استثمروا ضعف الاحزاب الاخرى وبسطوا نفوذهم على تلك الانحاء.

واستطاع احدهم، وهو فخرالدين الثاني، ان يوحد السياسة اللبنانية، ويوضع لسلطته الزعماء الذين تقاسموا النفوذ في الاراضي اللبنانية. وقد ادرك انه لا يمكن تكوين أمة اذا اقتصرت سياسة الامراء على ايجاد توازن بين النحل المتعددة. لذلك عمل على مزج جميع هذه الطوائف بعضها ببعض، ونهج لذلك خطة في السياسة الخارجية والداخلية وقف على تحقيقها كل حياته. وجاء خلفاؤه

في الحكم فسعوا للمحافظة على هذه الوحدة بين اللبنانيين.

وعندما امتد نفوذ ذلك الامير بدأ يتألف في الجهات كيان اقطاعي منظم مماثل للانظمة التي كان يسير عليها الصليبيون. فشطرت كل مقاطعة الى عدة اقضية ومديريات. فكان هناك كسروانان: كسروان غزير، وكسروان بكفيا، يقسم الاول الى خمسة اقضية والثاني الى ثلاثة. وعلى رأس كل قضاء امير حاكم يشرف على مجموعات من القرى والدساكر يحكمها احد المشايخ. وكان الهيكل الاقطاعي بهذه الصورة تحت اشراف امير المحافظة الذي يستمد نفوذه من الامير الاكبر المقيم في دير القمر. واجري التقسيم نفسه في مقاطعات الشوف والمتن والشحار والغرب التي كان يسيطر عليها امراء ومشايخ دروز. وكان هؤلاء الزعماء اسيادًا مطلقين في مقاطعاتهم يفرضون الضرائب، فيدخرون لنفسهم ما يقوم بحاجاتهم ويبعثون بالباقي الى الامير. وكانت لهم في الشؤون القضائية صلاحية واسعة سنتطرق الى درسها في سياق المقال.

وقد قال رحالة فرنساوي زار لبنان سنة ١٨٦٠ « انه لم يكن هنالك من فرق بين الامراء والمشايخ الموارنة وبين بقية الشرقيين الا في ذلك المزيج من التقاليد العربية والعادات الموروثة عن العهود الاقطاعية في الغرب. وهذا المزيج ليس الا انتقالًا من الحياة العشائرية المسيطرة في تلك الانحاء الجبلية الى الحياة المدنية العصرية التي بدأت بالانتشار في مدن السواحل الصناعية. حتى ان البيئة هناك تماثل بيئة القرن الثالث عشر الفرنساوي. غير ان المدقق لا يمكنه الا ان يستعيد ذكر صلاح الدين الايوبي وشقيقه الملك العادل الذي يفتخر الموارنة بانهم انتصروا عليه بين بيروت وصيدا.»

ولكن كل طائفة بقيت محافظة على جزء من تقاليدها وعاداتها رغم خضوعها جميعًا لسلطان واحد. فقد كانت هذه الملل تؤلف نحوًا من اتحاد دولي يرئسه امير. وكانت مصلحة الدفاع عن الحرية المشتركة، ومهارة الامراء في الحكم احيانًا، تجعل مجموعًا واحدًا من تلك الملل المتباينة. وكان الامير الاكبر يستعمل سلطته المطلقة بمعاونة مجلس الاعيان فيوزع الالقاب والامتيازات ويقضي بالموت او الحياة، ويفرض الضرائب والرسوم الجمركية، ويوقع المعاهدات

التجارية مع الدول الاجنبية ويحشد الجيوش ويسيرها للحروب تحت رايته الخاصة. ولكن سيطرة الامير كانت، كما ذكر الاب لامنس، معدّلة بإشراف الاعيان ومراقبتهم. فقد كان الامراء والمشايخ يشتركون بالضرائب ولم يكن باستطاعتهم ان يعلنوا الحرب او يوقعوا على شروط السلم الا بعد موافقة مجلس الشعب. وكان يحق للامراء والمشايخ، ولكل من استطاع بذكائه وشجاعته ان يكتسب نفوذاً، الاشتراك بالتصويت. فكان دستور لبنان السياسي مزيجاً معتدلاً من الارستقراطية والملكية والديموقراطية. وازاء النفوذ الذي كان يتمتع به المشايخ والامراء، وجدت سطوة الزعماء الدينيين. فقد كانوا يتمتعون بسلطة واسعة زاد في قوتها انقسام الامة الى طوائف متعددة، حتى ان نفوذ رجال الدين كثيراً ما اكتسح سلطان الامراء. اذ ان الامة، في الخلافات الناشبة بين هؤلاء واولئك، كانت تميل الى رجال الدين تارة والى الامراء طوراً. ويقول لامرتين في حديثه عن الموازنة ان رجال الاكليروس هم السلطة المعنوية الحقيقية في لبنان والقوة المسيطرة على العقول فيه: وقد كان اللبنانيون اجمالاً، على اختلاف مذاهبهم، يحملون الاحترام لزعمائهم الدينيين فيستشيرونهم في شؤونهم الخاصة والعامة. ويجب الاعتراف ان السلطة الدينية كانت الركن الوحيد المتين الذي بقي قائماً على تطور الاجيال.

ولقد توزعت السلطة القضائية بين القوتين. فكان الامراء يفصلون في القضايا الجزائية، ورجال الدين في الدعاوى المدنية. اذ ان هؤلاء كانوا المهيمنين طبعاً على الاحوال الشخصية ولم يلبثوا ان تناولوا بسلطتهم القضايا المدنية جميعها. وفضلاً عن ذلك فان المسيحيين كانوا يفصلون خلافاتهم بواسطة اساقفتهم منذ امد بعيد. وقد اشار الى هذا الامر السيد اسميك (Esmeiq) في تحليله الكتاب في الحق الروماني - السوري انه احد رجال الكنيسة السورية. فذكر تلك العادة التي اقرتها شريعة اصدرها قسطنطين الكبير، واحترمها خلفاء العرب في ما بعد.

وبعد ان احتل الاتراك القسطنطينية عام ١٤٥٣، ابقى السلطان محمد الفاتح على الكنائس، ومنح بطريرك الروم الاورثوذكسي حقوقاً وامتيازات تتناول

الادارة والتشريع ، ووضع الضرائب ، والقضاء ، والفصل في كل خلاف ينشب بين ابناء الطائفة.

وكان يعاون البطريرك في الحكم مجمع دائم كان بمثابة مجلس شورى ومحكمة ملية يمثلها لدى السلطان ،وظف خاص . وهكذا كان البطريرك المذكور رئيساً مطلقاً ذا سلطة مباشرة على جميع افراد طائفته مدنياً ودينياً . ولم تلبث الطوائف الاخرى ان تمتعت بهذه الامتيازات. على ان السلاطين اخذوا، حين قويت شوكتهم ، بالقضاء على هذه الامتيازات شيئاً فشيئاً ، حتى انحصرت صلاحية السلطة الكنسية في قضايا الاحوال الشخصية.

اما في لبنان فقد استمرت السلطات الدينية مسيطرة على القضاء سيراً على التقاليد القديمة ، استناداً الى امتيازات سابقة. ولهذا كان بطاركة الموارنة يرفضون دائماً فرمانات السلاطين ، تمسكاً منهم باستقلالهم عن الباب العالي . واذن فالقضاء عند المسيحيين كان بيد رجال الدين.

وفي اواخر القرن الثامن عشر جرّب الامراء، مدّةً ما ، ان يحتفظوا بالسلطة القضائية دون البطاركة فيعينوا هم القضاة سواء أكانوا من رجال الدين ام من غيرهم . وهكذا عيّن الاسقف الرومي الكاثوليكي جرمانوس آدم الحلبي قاضياً للنصارى بين سنة ١٧٨٠و١٧٨٥ . على ان الامراء لم يلبثوا ان عادوا الى التقاليد القديمة. وفي سنة ١٧٩١ اعيدت السلطة القضائية للبطاركة ، بأمر من الاميرين الشهابيين قعدان وحيدر . وقد جاء في الامر الصادر منهما ما يلي :

« سبب تحريره : اننا لما فحصنا عن المظالم التي تجددت على رعايانا وانعرضت علينا المادة التي احدثت في الطائفة النصرانية منذ ايام وجيزة وهي اقامة قاضي ان كان مطران امخوري من قبل سلفائنا لاجل قطع الشرائع والدعاوي التي تحدث ما بين الطائفة المذكورة وقد جعلوا لمن يقوم بهذا المقام ان يأخذ محصول على جميع الدعاوي التي تتعرض عليه فلما تحققنا انها سنّة غير عادلة وظلم على رعايانا لزم امرنا في ابطالها ورفعها من يد المطارنة والموارنة بل تكون بيد حضرة عزيزنا البطرك يوسف ومن يقوم مقامه بما انه راس دينهم وملتزم بتدبيرهم وانه يقضي ويحكم على جميع الدعاوى والشرائع الذمية والمالية التي تحصل في بطريركيته من غير انه يأخذ محصول ام يكلف احد شيء لاجل هذا المنا فليقضي بينهم بالحق الصريح ولاجل ذلك اعطينا قول ثابت الى حضرة عزيزنا المذكور بجميع ما ذكرناه وان لا يعتبر له معارض من احد ثم نأمر ان يدوم ذلك ثابتاً له ولمن يقوم بعده في البطركية وله منا الصيانة والحماية

ابن عبد ربه و « عقده »

درس ادبي تاريخي

بقلم جبرائيل جبّور
احد اساتذة الادب العربي في جامعة بيروت الاميركية

٥

قيمة العقد التاريخية

يعدّ العقد مصدرًا من المصادر الاولية المهمّة التي يرجع اليهـا الباحثون في تاريخ العرب السياسي والاجتماعي والادبي . وقـد امتاز عن كثير من الكتب القديمة بتبويبه وحسن ترتيبه واختياره ، كما وانه يذكر لنا بعض روايات الاقدمين كالاصمعي ، وابي عبيدة ، والعتبي ، والشيباني ، وغيرهم ، ممن لم يترك لنا الزمن من آثارهم التاريخية والادبية شيئاً كثيرًا مجموعاً في كتب مستقلة . ولـذلك فذكر العقد لرواياتهم يفيد من يودّ الرجوع اليها ، او من يرغب في مقابلة بعضها في المصادر المختلفة مع ما هي عليه في العقد .

ويذكر العقد اخبارًا كثيرة عن رجال الاسلام الأول من خلفـاء وامراء وقوّاد في عصر الراشدين والامويّين ، وعن ايام العرب الاولى واختلاف امرهم في العصر الامويّ ، لا بدّ للباحث في تاريخهم من الوقوف عليها . كما وانه يذكر في بعض كتب العقد كثيرًا من الفوائد التاريخية ممّا يتعلق بالسياسة والاقتصاد والاجتماع والادب وغيرها . واذا قرأت خبر وفود عبدالله بن جعفر مثـلًا على عبد الملك بن مروان[1] رأيت في هـذا الخبر فوائد عن حالـة القوم الاقتصادية والاجتماعية ، وفهمت شيئاً من تلك العلاقات بين بني امية في الشام من ناحيـة

---

[1] ابن عبد ربه ١٤٦:١

وبين بعض هذا النفر الارستقراطي في الحجاز من ناحية اخرى. كذلك نرى في كتاب السلطان مثلًا اخبارًا ذات شأن عن سياسة عمر، كما فهمها اهل ذلك العصر، ومحاسبته للعمال، وعن حياة الامراء، وبلاط الخلفاء، وعن نزعة اهل ذلك الجيل الجديد، الذي تلا عصر الصحابة الاول، الى البذخ والترف وميلهم الى اقتناء المال وامتلاك المزارع وبناء الدور الجديدة واتباعهم سبل المرح واللهو. فنقرأ مثلًا «كتب عمر الى احد عماله: وقد بلغ امير المؤمنين انه فشت لك ولاهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلها.» [1] او مثلًا: «قال ابو هريرة لمروان: اتظلّ عند ابنة فلان تروّحك بالمراوح وتسقيك الماء البارد وابناء المهاجرين والانصار يصهرون من الحرّ» [2].

وكذلك قل عن كتاب الحروب ففيه بعض الفوائد عن تاريخ العرب السياسي، وفيه نتف من اخبار الخوارج [3]. وقد ذكر في كتاب النسب اخبارًا دقيقة لها علاقة في بعض الامور التاريخية كأن يورد مثلًا في كلامه عن قريش تسمية من انتهى إليه الشرف من قريش في الجاهلية فوصله بالاسلام، ويشرح المكارم التي كانت لهم في الجاهلية من سقاية، ورفادة، وسدانة، وحجابة، الخ [4].. وذكر في كتاب آخر من العقد اسماء من كتب للنبي، ولبعض الخلفاء والامراء من بعده [5]. ويروي في بعض الاحيان اخبارًا لها اهميتها لمن يريد التخصص في درس بعض الشخصيات الاسلامية. فقد ذكر مثلًا عن عثمان بن عفّان انه كان يعتني في ثيابه ويتنظف، وانه كان، وهم يبنون المسجد بالمدينة زمن النبي، يحمل اللبنة ويجافيها عنه بحيث لا تمسّ ثيابه فاذا وضعها نفض كفّيه ونظر الى ثوبه فاذا اصابه شيء من التراب نفضه عنه. فنظر اليه علي وانشد:

لا يستوي من يعمر المساجدا ... يدأب فيها راكعًا وساجدا
وقائمًا طورًا، وطورًا قاعدًا، ... ومن يُرى عن التراب حائدا. (٦)

وكتب عن الحجاج فصلًا في نحو ٢٠ صفحة في اليتيمة الثانية [7] عدا عمّا نثره

---

١) ابن عبد ربه ١: ٣٤
٢) ابن عبد ربه ١: ٣٢
٣) ابن عبد ربه ١: ٨٠
٤) ابن عبد ربه ٢: ٤٥–٤٦
٥) 〃 〃 ٢: ٢٠٧
٦) 〃 〃 ٢: ٢٨١
٧) 〃 〃 ٣: ٦–٢٦

عنه في اكثر كتب العقد.

كذلك نرى في العقد كثيراً من الفوائد عن حالة العرب الاجتماعية من سماعهم للغناء ومجالسهم حوله، وطرق معيشتهم، ولباسهم وطعامهم وشرابهم، ورأيهم في الخمر والنبيذ، وذكر الشاربين ومن حُدَّ منهم، ونظر الائمة لبعض ضروب هذا اللهو الذي نشأ بعد احتكاكهم بالامم الاخرى، وتساهل البعض في امره وشدة البعض الآخر، واختلاف الاقطار بالنسبة إلى آراء اهلها وانتجاعها في الغناء والشراب مثلاً، وما الى هذه الامور.

وللعقد قيمة تاريخية من حيث الرجوع اليه عند نشر بعض الكتب التي اخذ عنها صاحبه، او التي اخذت عن رواة استند اليهم ابن عبد ربه ايضاً. وقد الحقت لجنة دار الكتب في القاهرة عند نشرها كتاب «عيون الاخبار» زيادات كثيرة في متنه نقلتها عن العقد وصححت كثيراً من الاغلاط التي عثرت عليها في النسخ الخطية من «عيون الاخبار» عند مقابلتها بالعقد.

ويجب ان لا ننسى ان العقد من المصادر القديمة، فصاحبه قريب عهد بكثير من الامور التي وقعت وذكرها في كتابه. كما وان في العقد كتاباً كبيراً قصره لتاريخ الخلفاء يمتاز عن كثير من كتب التاريخ القديمة من حيث الاختيار والاختصار اللذان قصد اليهما مؤلفه. فقد حشد في نحو ١٣٣ صفحة فوائد كثيرة عن الخلفاء في الشرق والاندلس حتى زمنه، كتبت باسلوب سهل واضح اجذاب، وروعي فيها الترتيب والتبويب. وقد لاحظنا اتفاق بعض النصوص في هذا الكتاب مع النصوص التي اوردها الطبري بتاريخه بالحرف تقريباً. ورغم ان الذين عُنوا من المستشرقين بنشر تاريخ الطبري قد رجعوا الى العقد، فانا قد وقعنا على اغلاط في مواضع بتاريخ الطبري كان من اليسير تجنبها لو التفت الى رواية العقد. ففي الجملة التالية (ص ١٨٧٠): «لم يتم لابرهيم امره وكان يسلم عليه جمعة بالخلافة وجمعة بالامرة وجمعة لا يسلمون عليه لا بالخلافة ولا بالامرة» وفي العقد (٢: ٣٤٧) «فلم يتم له (اي لابرهيم بن الوليد) الأمر وكان يدخل عليه قوم فيسلمون بالخلافة وقوم يسلمون بالامرة وقوم لا يسلمون بخلافة ولا بامرة وجماعةٌ تبايع وجماعة يأبون ان يبايعوا.» وظاهرٌ ان الناشرين قد

قرأوا « جماعة » « جمة » . فلينتبه الى هذا !

وربما من الخير ان نذكر هنا رأي الاستاذ جرجي زيدان من حيث قيمة العقد التاريخية . قال في كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » :

« ان في بعض ابوابه فصولاً لا تجد مثلها في كتب التاريخ فاخبار زياد والحجاج والطالبين فيها حقائق يعزّ العثور عليها في كتاب آخر . وناهيك بايام العرب واعاريض الشعر وما هناك من اخبار الخوارج والازارقة فضلاً عن كثير من الاقوال المأثورة عن عظماء الملوك نقلًا عن كتب ضاعت اصولها » [1]

ولا يفوتنا هنا ذكر اهمية العقد التاريخية من حيث انه يحتوي على بعض الاخبار التاريخية عن الاندلس ، لاسيما في ارجوزة صاحبه الكبيرة . ومن حيث انه صادر عن عربي اندلسي يبحث في تاريخ العرب في عصورهم الاولى من جاهليتهم الى عصرهم العباسيّ الذهبي . وقد كان صاحبه بعيداً الى حدّ ما عن تأثير اصحاب الامر والسلطة على المؤلفين والادباء في المشرق . وقد ساعده بعده عن مواطن العرب الرئيسية واحزابهم المختلفة ، وجوه الاندلسي على شيء من الحرية الفكرية التي حرمها كثيرون غيره . غير انه رغم هذه الامور لم يستطع ان يتجرّد من بعض النزعات والميول ، ولم يتجنب كثيراً من الاغلاط التي ارتكبها غيره . ونرى من الخير ان نبحث هنا في بعض نزعات ابن عبد ربه الخاصة من شخصية وغيرها ، وميوله ، والمؤثرات المختلفة التي يمكن ان تكون قد اثرت عليه والظروف التي احاطت به ، بحيث نعلم شيئاً من قيمة هذه الاخبار التي نراها في العقد ونكون قد انصفنا الرجل وكتابه .

ضعفه كمؤرخ

والظاهرة الاولى التي تبدو في العقد هي ضعف صاحبه كمؤرخ . نلمس هذا الضعف من نواح متعددة : منها ان ابن عبد ربه يرى ان لا اهمية للاسناد في الاخبار ، ويدوّن مبدأه هذا بصراحة في مقدمة كتابه حيث يقول : « وحذفت الاسانيد من اكثر الاخبار طلباً للاستخفاف والايجاز وهرباً من التثقيل والتطويل

---

1) زيدان ٣ : ١٧٤

لأنها اخبار ممتعة وحكم ونوادر لا ينفعها الاسناد باتصاله ولا يضرّها ما حذف منها.»[1] ويقول: «سئل حفص بن غياث الاعمش عن اسناد حديث فاخذ بحلقه واسنده الى الحائط وقال: «هذا اسناده» . وحدّث ابن السمّاك بحديث فقيل له ما اسناده؟ قال: «هو من المرسلات عرفا!» وحدّث الحسن البصري بحديث فقيل له: «يا ابا سعيد عمن؟» قال: «وما تصنع بعمّن يا ابن اخي؟»[2] وترى انه يتساهل في اسناد الاخبار حتى في الحديث، وهو يخالف ابا الفرج الاصبهاني من هذه الناحية، فان الاغاني من الكتب المسندة (المعنعنة). وقد اخذ ابن عبد ربه كثيراً من الاخبار – كما رأينا في الفصول السابقة – عن مصادر اهمل ذكرها. وتقع في بعض الاحيان على باب في اخبار عليّ ومعاوية مثلاً ترى فيه فوائد كثيرة، ولكن لا تعلم من اين استقى ابن عبد ربه هذه الفوائد.

وترى من ناحية ثانية ان له رأياً في الاختصار والاختيار ذكره في مقدمة كتابه. ومن الخير ان يلتفت اليها قال: «وقد الفت هذا الكتاب وتخيّرت جواهره من متخير جواهر الآداب ومحصول جوامع البيان فكان جوهر الجوهر ولبّ اللباب وانما لي فيه تأليف الاختيار وحسن الاختصار... واختيار الكلام اصعب من تاليفه وقد قالوا اختيار الرجل وافد عقله.»[3] فهو يقول بصراحة انه عمد الى بعض الاخبار فاختصرها او اختار منها ما يلائم كتابه او ذوقه زاعماً انه يختار الاحسن، فله اذن الفضل الاكبر.

ويظهر من ناحية اخرى انه لا يمحص الاخبار بل تراه ينقل الكثير منها على علاّته، دون ان يسبرها بمعيار العقل والمنطق. وهو يشترك بهذا مع كثير من مؤرخي العرب المتقدمين، فيذكر مثلاً اخباراً عن المعترين منها ان احدهم عاش ٣٠٠ سنة ووفد آخرَ عمره على معاوية[4]. ومنها ان احدهم عاش ١٩٠ سنة فاسودّ شعره ونبتت اضراسه وعاد شاباً ويقول: «ولا يعرف في العرب اعجوبة مثله»[5]. ومنها: «ومن بطون غطفان نصر بن دهمان كان من المعمرين وعاش مئتي

١) ابن عبد ربه ١: ٢
٢) ابن عبد ربه ١: ٢
٣) ابن عبد ربه ١: ٣
٤) 〃 〃 ١: ٣٣٣
٥) 〃 〃 ١: ٣٣٣

سنة.»[1] والغريب انه يعود فيـذكر انه مكتوب في الزبور من بلغ السبعين اشتكى من غير علة[2].

ويذكر اقوالًا من هذا القبيل منها مثلًا «من قال على طعامه: «بسم الله خير الاسماء، في الارض وفي السماء، ولا يضر مع اسمه داء، اللهم اجعل فيه الدواء والشفاء»، لم يضره ذلك الطعام كائناً ما كان.»[3] او يذكر قصة عن ابي جعفر المنصور وتوعده جعفر بن محمد بالقتل وكيف ان الاخير نجا لانه قبل دخوله على ابي جعفر تلا دعاء هو: «اللهم احرسني بعينـك التي لا تنـام، واكنفني بكنفك الذي لا يرام، ولا اهلـك وانت رجائي فكم من نعمة انعمتها عليّ قلّ عندها شكري فلم تحرمني وكم من بلية ابتليتني بها قل عندها صبري فلم تخذلني. اللهم بك ادرأ في نحره واعوذ بخيرك من شره.»[4]

او يقول مثلًا: «ومن همدان شريك بن حباشة الذي دخل الجنة في الدنيا ايام عمر بن الخطاب.»[5] او: «انتهب عسكر الحسين فوجد فيـه طيب لم تتطيب به امرأة الا برصت»[6]. ويذكر مثـلًا في باب طبائع الانسان امورًا نقلها عن غيره هي ابعد الاشياء عن طبائع الانسان لو يعقلون. منها ان امرأة حملت فاقامت خمس سنين ثم ولدت. وحملت مرة اخرى فاقامت ثلاث سنين ثم ولدت. ويردفها بروايات اخرى عن رجال يسميهم ولـد بعضهم لسنتين من حمله[7].

ويذكر في باب الحيوان اخبارًا كلها اوهام منها «ان هشاماً بن محمد حدث ان ابن الكلبي حدث ان اسماء نساء بني نوح (صلعم) اذا كتبن في زوايا بيت البرج (برج الحمام) سلمت الفراخ ونمت وسلمت من الآفات. قال هشام: فجربته انا وغيري فوجدناه كما قال»[8]

ويتكلم في نسب لخم فيقول: «ومنهم مالك بن ذعر... بن لخم يقال

---

١) ابن عبد ربه ٢: ٦٢ — ٢) ابن عبد ربه ١: ٣٣٤
٣) ابن عبد ربه ١: ٢٩٧ — ٤) ابن عبد ربه ١: ٢٩٧
٥) 〃 〃 ٢: ٦٤ — ٦) 〃 〃 ٢: ٣٠٩
٧) 〃 〃 ٣: ٢٥٢ — ٨) 〃 〃 ٣: ٢٥٥

انه الذي استخرج يوسف بن يعقوب صلوات الله وسلامه عليه من الجب.» (١

ويذكر امورًا غريبة مثل « بعث ملك الهند الى عمر بن عبد العزيز كتاباً فيه من ملك الاملاك الذي هو ابن الف ملك والذي تحته ابنة الف ملك والذي في مربطه الف فيل والذي له نهران ينبتان العود والالوة والجوز والكافور الذي يوجد ريحه على مسيرة اثني عشر ميلاً الى ملك العرب الذي لا يشرك بالله شيئاً اما بعد فاني قد بعثت اليك بهدية وما هي بهدية ولكنها تحية قد احببت ان تبعث اليّ رجلاً يعلمني ويفهمني الاسلام والسلام.» (٢ ومثل « قال ايوب بن سليمان : حدثنا ابان بن عيسى عن ابيه عن ابن القاسم قال: بينا سليمان بن داود ، عليهما السلام ، تحمله الريح اذ مرّ بنهر واقع على قصر فقال له : كم الك مذ وقعت هونا ? قال: ٧٠٠ سنة . قال : فمن بنى هذا القصر? قال : لا ادري هكذا وجدته . ثم نظر فاذا فيه كتاب منقور بابيات من شعر وهي :

خرجنا من قرى اصطخر الى القصر فقاناه
فمن يسأل عن القصر فبنيناً وجدناه
فلا تصحب اخا السوء واياك وإياه
فكم من جاهل اردى حكيماً حين آخاه
يقاس المرء بالمرء اذا ما المرء ماشاه
وفي الناس من الناس مقاييس واشباه
وفي العين غنى للعين ان تنطق افواه » (٣

والغريب — ولا بدّ لنا انصافاً لابن عبد ربه من ذكره — انه في بعض الاحيان يقع على خبر غير معقول فينفي وقوعه ، قال: «ومات حنظلة بمدينة الرها فقالت فيه امرأة ، وحكي انه من قول الجن ، وهذا محال

يا عجب الدهر على محبوبة تبكي على ذي شيبة شاحب » (٤

ونرى ابن عبد ربه ايضاً لا يختلف كثيراً عن بعض مؤرخي العرب القدماء، عند نقلهم الاخبار التاريخية ، في عدم تقديرهم الاسباب الحقيقية في كثير من

---

١) ابن عبد ربه ٢ : ٨٤ ٢) ابن عبد ربه ١ : ١٩٧
٣) « « ١ : ٣٢٥ ٤) « « ٣ : ٣٠٥

الحوادث المختلفة . من ذلك انه نقل ان سبب العداء بين قبيلتي بكر وتميم هو اجتماع تميم بن مرة وبكر بن وائل عند ملك من ملوك العرب ، ووقوع منازعة بينهما ومفاخرة انتهت بطلبهما من الملك سيفين يتجالدان بهما . فامر الملك فنُحت لهما سيفان من عود فجعلا يضطربان مليًا من النهار . فقال بكر بن وائل :

لو كان سيفانا حديدًا قطعا

فقال تميم بن مرة :

او نحتا من جندل تصدعا

وحال الملك بينهما فقال تميم لبكر :

اساجلك المداوة ما بقينا

فقال له بكر :

وان متنا نورثها البنين

ويقول ابن عبد ربّه : « فيقال ان عداوة بكر وتميم من اجل ذلك الى اليوم . »[1]

وهو قليل التدقيق في كثير من الامور التي يذكرها بحيث يورد في بعض الاحيان اخبارًا في موضع ، ثم يوردها بموضع آخر بصورة تناقضها تمامًا دون اشارة الى انه قد لاحظ هذا التناقض . وقد ذكر في موضع ان معاوية مات وولده يزيد عنده[2] . وعاد فذكر في موضع آخر ان يزيد كان غائبًا حين مات والده[3] . ويذكر ان عروة بن اذينة وفد على عبد الملك بن مروان وجرت له معه قصة مشهورة[4] . والمعروف في هذه القصة انها جرت عند وفود عروة المذكور على هشام بن عبد الملك ، لا على عبد الملك ، كما ذكر ابن عبد ربه نفسه في موضع آخر[5] : كذلك يذكر عن يزيد بن الوليد بن عبد الملك انه سمّي بالناقص

---

١) ابن عبد ربه ١ : ٣٢٠ ٢) ابن عبد ربه ٢ : ٤
٣) « « ٢ : ٤٣ ، وراجع ايضًا ٢ : ١٧٢
٤) « « ١ : ٢٨٧
٥) « « ٣ : ١٢٦ ؛ وانظر الاغاني لابي الفرج الاصبهاني ج٢١ : ١٦٤ ، طبعة ليدن سنة ١٣٠٥ هـ .

لفرط كماله[١]. ويهمل ما هو مشهور من انه سمّي بالناقص لانقاصه الاعطيات. وذكر ان مدة ولايته شهر[٢]، وفاته الالتفات الى ما نقله عن بعض الرواة في الكتاب نفسه ان ولايته كانت خمسة اشهر واثني عشر يوماً[٣]. وذكر في موضع[٤] ابياتاً من الشعر وقال ان تمامها وقعت في الكتاب الذي افرده للمراثي؛ غير انه في كتاب المراثي لا يذكر الّا الابيات نفسها دون زيادة[٥].

غايته الادبية

وظاهرة اخرى تبدو في العقد وهي ان غاية صاحبه ادبية قبل كل شيء. ولعلّ غايته هذه قد دفعت به الى اهمال الاسناد، وحببت له الاختصار والاختيار عند ذكره بعض الاخبار. وهذه الغاية مسؤولة فيما نرى عن كثير من نقط الضعف التاريخي في ذكر الاخبار التي نراها في العقد. قال: « وحذفت الاسانيد من اكثر الاخبار طلباً للاستخفاف والايجاز وهرباً من التثقيل والتطويل لانها اخبار ممتعة وحكم ونوادر لا ينفعها الاسناد باتصاله ولا يضرها ما حذف منها»[٦] وقال ايضاً: « وتطلبت نظائر الكلام واشكال المعاني وجواهر الحكم وضروب الادب ونوادر الامثال ثم قرنت كل جنس منها الى جنسه فجعلته باباً على حدته ... وقصدت من جملة الاخبار وفنون الآثار الى اشرفها جوهراً واظهرها رونقاً والطفها معنى واجزلها لفظاً واحسنها ديباجة واكثرها طلاوة وحلاوة.»[٧]

ويرى القارئ ان ابن عبد ربه يقول بصراحة تامة ان غايته ادبية، وانه يلتفت الى اشرف الاخبار، واظهرها رونقاً، والطفها معنى، واجزلها لفظاً بنظره. واذاً فكل الاخبار التاريخية التي لا تقع تحت هذا الجدول من العبارات مهملة في نظره لا يُعنى بها. زد الى ذلك مبدأه في حذف الاسناد والاختصار.

١) ابن عبد ربه ١ : ٢٠
٢) ابن عبد ربه ٢ : ٣٢٧
٣) 〃 〃 ٢ : ٣٤٧
٤) 〃 〃 ١ : ٣٢٥
٥) 〃 〃 ٢ : ٨
٦) ابن عبد ربه ١ : ٣
٧) ابن عبد ربه ١ : ٣

وقد ذكر مرة في عقده توسطه لدى بعض موالي السلطان بتخليص سجين ، فاهمل ذكر اسم المولى ، واسم السجين ، وسبب سجنه ، والبلدة التي سجن فيها ، ولم يدوّن الّا الشعر الذي نظمه بعد ان اخفق في مسعاه[١].

اعتداله

وهناك ناحية خاصة من نواحي عقلية ابن عبد ربه هي اعتداله في اكثر الابحاث التي طرق ابوابها في العقد ، واتباعه سبلًا خاصة شقّها لنفسه بين مذهبين متطرّفين بحيث لا يتقيد بمذهب طرف واحد . ولعلّ شيئاً من هذا قد اخذه عن أستاذه بقي بن مخلد الذي ذكرنا انه قيل عنه « كان متخيرًا لا يقلد احدًا . »[٢] فتراه اذا بحث في الدين مثلًا — وهو الفقيه — انكر عليك المروق منه وانكر الغلوّ فيه ، واتاك بحديث نبوي : « ان هذا الدين متين فاوغل فيه برفق فان المنبت لا ارضاً قطع ولا ظهرًا ابقى »[٣] ، او نقل اليك كلام علي : « خير هذه الامة النمط الاوسط يرجع اليهم الغالي ويلحق بهم التالي »[٤] . فهو يرى الدين بين الافراط والتقصير — خير الامور اوسطها — واذا قرأت ما دوّنه في باب الغلوّ في الدين[٥] ترى هذه الطريق التي يسلكها جدّ واضحة . واذا بحث في امر السماع والشراب ابدى لك تساهلًا ندر ان يبديه فقيه ، واتاك باخبار عن القدماء ، واحاديث يذهب فيها الى تأييد وجهة نظره . وقد ذكرنا بعضها فيما سبق من هذا البحث[٦] .

كذلك نرى اعتداله وتساهله عند بحثه في انشاد الشعر الغزلي في المسجد ، وكيف يأتينا بكثير من الشواهد على عدم انكار النبي والصحابة الاول له[٧] .

ويذكر شعر عروة بن اذينة ، وهو من فقهاء المدينة وعبّادها ، وتشبيبه ، وقد وقفت عليه امرأة ، فقالت له : انت الذي يقال فيه الرجل الصالح وانت القائل :

---

١) ابن عبد ربه ١ : ١٠٧
٢) المقرّي ١ : ٥٩٠
٣) ابن عبد ربه ١ : ٢٥٠
٤) ابن عبد ربه ١ : ٢٥٠
٥) ابن عبد ربه ١ : ٢٤٩–٢٥٣
٦) راجع ايضاً ابن عبد ربه ٣ : ٢٢١–٢٢٣
٧) ابن عبد ربه ٣ : ١٢٥ و ١٢٦

اذا وجدت اوار الحب في كبدي غدوت نحو سقاء الماء ابترد

هبني ابتردت ببرد الماء ظاهره ، فمن لنار على الاحشاء تتقد ؟

والله ما قال هذا رجل صالح .»[١] يذكر هـذا الشعر وقول المرأة فينكر عليها تطرفها في الامر واستنتاجها انه مراء ، ويرد عليها قائلا :« كذبت عدوة الله ، عليها لعنة الله . بل لم يكن مرائياً ولكنـه كان مصدوراً فنفث . »[٢] ولعل ابن عبد ربه هنا كان يجهل ان المرأة هذه ، فيما تنص بعض المصادر ، هي سكينة بنت الحسين[٣].

ونلمس هذه الناحية من عقليته في كثير من المواضيع التي نثرت في العقـد والتي ابدى فيها آراءه ملازماً خطة وسطى بين سبيلين متطرفين . وقد اشار الى حبه هذا التوسط في باب جامع الآداب من كتاب الياقوتة في العلم والادب قال :« وقد ادب الله نبيّه باحسن الآداب كلها فقال له : وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ ولا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً[٤] ، فنهاه عن التقتير كما نهاه عن التبذير وامره بتوسط الحالتين كما قال عزّ وجلّ : وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا ولم يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً »[٥].

ومع اننا نشتم من عقده شيئاً من النزعة الشيعية عنده ، فاننا لنراها شيعية معتدلة بين الشيعية المتطرفة وبين اخصام علي . وهو على كل حال لا يطعن الّا بالمتطرفين حتى انه في انكاره على بعض الشيعة تطرفها يلعن السبأية والمنصورية من الرافضة قال :« فاما الرافضة فلها غلوّ شديد في علي ذهب بعضهم مذهب النصارى في المسيح وهي السبأية اصحاب عبدالله بن سبا عليهم لعنة الله . . . وقد احرقهم علي رضي الله عنه بالنار .»[٦]

---

١) ابن عبد ربه ٣ : ١٣٦ ٢) ابن عبد ربه ٣ : ١٣٦

٣) الاغاني لابي الفرج الاصبهاني ج ٢١ : ١٦٧ ، طبعة ليدن سنة ١٣٠٥ هـ – ومواسم الادب وآثار العجم والعرب للعلوي ج ٢ : ٨٣ مصر سنة ١٣٢٦ هـ – ومصارع العشاق لابن احمد السراج ، طبعة القسطنطينية ، سنة ١٣٠١ ج ١٨ : ٢١٣

٤) سورة الاسرى (١٧) الآية ٣١

٥) ابن عبد ربه ١ : ٢٧٠ ؛ وانظر سورة الفرقان (٢٥) الآية ٦٧

٦) ابن عبد ربه ١ : ٢٦٧ (للبحث صلة)

المرأة في الحرب الكبرى

من مظاهر البسالة النسوية

حوادث واقعية

بقلم الخوري بطرس روفائيل

البسالة قوّة كامنة تبدو في الاخطار والاهوال ، فتحمل صاحبها على اعمال يندر وجودها وحدوثها في عامة الناس.

الرجل الباسل تصغرُ في عينيه عظائم الامور ، يسير في سبيله غير هيّاب ، ليس عنده للحياة قيمة ولا يعرف لها معنًى الا اذا أنجز ما رآه واجباً مفروضاً عليه.

الرجل الباسل قلبهُ قُدَّ من الصخر ، وعزمهُ صُنع من الفولاذ ، وارادتهُ أفرغت في قالب من الحديد ، تثبت امام العواصف وتردي بالمهالك . لا شيء يثنيه عن قصده مهما صعب ، ولا يعوقه عائق مهما ثقل ، ولا يمنعه مانع مهما عظم .

تلك صفات لا نراها في المرأة غالباً ، لما هي عليه من دقة الشعور ، وتقلّب العواطف ، وحدّة المخيّلة المجسّمة للحوادث والمعظّمة للمفزعات.

على ان الحرب الكونية قد كشفت لنا القناع عن امور لم تكن لتدور في خلد أحد ، وعرضت للعيان من المناظر ما لم يكن بالحسبان.

صلّت المرأة قلبها ، وشحذت عزمها ، وشدّدت ارادتها ، وقيّدت مخيّلتها وحنانها ، فبرزت الى ميدان البسالة وظهرت فيه بمظهر الابطال.

كتبت ملكة بلجيكة شهيدة الوطنية والامانة آية ذهبية لابنها ليوبولد قالت : « الشجاعة لا تقوم بالالفاظ الجميلة بل بالعمل » .

وقد صدق قولها هذا في كثيرات من الجنس اللطيف كبيرات وصغيرات ،

سواء أكنَّ من دُول الحلفاء ام من المانية والنمسة .

أجل انهُ لوافرٌ عدد النساء اللواتي أبدين من الشجاعة والجلد وعلوّ الهمّة والاقدام ما جعل اسمهنَّ مجيداً يُسطَرُ بالاعجاب والفخر في تاريخ الحرب الطاحنة الساحقة . فلُقِّبنَ بالنساء البواسل كما يُلقَّب الرجال بالابطال . وقد نقل الينا كتّاب الجرائد والمجلّات اسماءعديدات منهنّ نكتفي بايراد بعضها حبًّا بالاختصار، لا خوفاً من الملل والاضجار .

***

في آخر شهر آب من سنة ١٩١٤ لعبت خمرة الانتصار بروُوس الالمان ، فكانوا العدوّ الذي لا يلين ولا يشفق . مدافعهم لا تسكن ولا تسكت ، بل تمطر فرنسة وابلًا من القذائف من ورائها الموت الاحمر ، وقد نشروا اليأس والذعر في كل ارض اجتاحوها .

وفي صباح يوم اقبلت شراذم الجنود الفرنساوية مرتدَّة على عقبها ، يرافقها بعض نقّالات تحمل عدداً من الجرحى . دخلت مدينة سواسون ، فهلعت لمرآها قلوب السكان . وما مضت برهة حتى صدر امر السلطة باخلاء المدينة ، فهُجرت في مدة ثلاثة ايام . ولم يبقَ من اهلها ، وعددهم خمسة عشر الفاً ، سوى الفين فقط . اكثرهم من ذوي العاهات، ومن الشيوخ والنساء والمرضى والجرحى الذين لم يتيسر نقلهم الى جنوب فرنسة ، لان الالمان كانوا اطلقوا قنابلهم على الاسلاك الحديدية والمحطّة فخربوها .

وقفت حياة المدينة ، وساد عليها السكون ، وخيّم عليها الحزن والجزع . نزح الوجهاء . ورجال الحكومة ، وأخلوا مراكزهم مُلقين على عاتق امرأة عبءَ المحافظة على النظام وادارة شؤون البلدة . هي السيدة ماشريز ، رئيسة جمعية السيدات الفرنساويات ، ومديرة المستشفى . قبلت ان تتحمّل تلك التبعة وقامت بأعباء وظيفة العمدة بكلّ نشاط . فشرعت تعتني بمداواة الجرحى والمرضى ، وتهتمّ باعالة الشيوخ والعجائز . تقضي ليلها بالسهر ، ونهارها بالحركة والعمل . ولمّا اشار عليها الجنود المتقهقرون بالرحيل ، وأنبأوها بان العدوّ يتعقّبهم على بُعد بضعة كيلومترات ، اسرعت فنقلت الجرحى منهم الى المستشفى ، ووزّعت

الطعام على الاصحا. قائلةً لهم: « ابتعدوا انتم واذهبوا بسلام . فاني قادرة على الدفاع وحدي عن المدينة وما فيها. »

ولم تمضِ برهة حتى دخل الالمان الى سواسون، واقبل قائدهم، الى مركز الحكومة طالباً مقابلة العمدة. فتقدمت اليه السيدة ماشريز وقالت: ما تبتغي؟

— مقابلة الحاكم.

— انا هو . واني لمسؤولة عن كل شخص وعن كل امر.

— اريد ان ارى الجرحى لعلّ بينهم جنوداً اصحاء.

— زُرهم، ولكني لا أدعك تمسّ واحداً منهم.

جرى حديث طويل ومناقشة شديدة بينهما أظهرت في اثنائها تلك السيدة من الغيرة ورباطة الجأش ما جعل القائد الالماني يستصغر نفسه امامها. ثم استطرد في الكلام وقال بحدّة:

— اريد ان تقدّمي لجنودي، على سبيل الغرامة، سبعين الف كيلوغرام من العلف. ومثلهـا من اللحم المقدّد. وعشرين الف كيلوغرام من التبغ والسيجار.

— انك تطلب مني القمر لاسهل من طلبك هذا. لان المدينة خالية من الزاد وما فيها يكاد لا يكفي الجرحى والعجزة من اهلها.

— واذا احرقتُ المدينة ودمّرتها فما تفعلين؟

— لا أدعُك تفعل ذلك، قبل ان يمزّقني الرصاص.

فوقف القائد مبهوتاً امام بسالة « حاكمة سواسون ». وأخمد غضبه، ورأى ان لا مندوحة له عن الاتفاق. فرضي ان لا يُمسّ المستشفى بسوء، وان يدع الشيوخ والجرحى والنساء في راحة، وان تُصان حياتهم ومنازلهم، مقابل بعض حاجات تقدمها للجنود، وقد فرضت على نفسها غرامة تهبها من مالها الخاص.

هذا ما جرى. وهكذا حفظت هذه الباسلة مدينتها من الحريق والدمار. الى ان عادت الجنود الفرنسية . واسترجعتهـا في معركة الايسن الشهيرة، التي فيها اصابت شظايا قنبلة السيدة ماشريز جرحتها جرحاً بالغاً. الا انها شُفيت رحمة

بالانسانية فاستأنفت اعمالها الخيرية الفاضلة.

***

ويشبه هذه الرواية رواية اخرى جرت مع السيدة جوليا ديل في جربفيلر، في مقاطعة الوزيل. اشتهرت هذه السيدة ايضاً بشجاعتها واقدامها ودفاعها عن حياة كثيرين من الجنود والمرضى. وقبل اخلاء المدينة عهد اليها حاكم المقاطعة ادارة شؤون البلدة كعمدة لها. فلما دخل الاعداء اليها في شهر آب سنة ١٩١٤، أقبل قائدهم، والمسدَّس في يده، فولج دار الحكومة وسألها: اين المحافظ ؟

— انا هو.

— أعندكِ هنا جنود مختبئون ؟

— كلا ليس عندي سوى الجرحى والمرضى.

— اريد ان اراهم.

— لا بأس. وانما لا اسمح لك ان تمدّ يدك الى احد منهم.

ولكن شتّان بين ما وعد وما فعل. فما وطئت رجله محالّ الجرحى الفرنسويين حتى امر بطرحهم على الحضيض. ووضع في مكانهم على الاسرّة ٢٥٨ جريحاً من رجاله. وأكره السيدة جوليا على ان تعتني بهم. فأذعنت واهتمت بمداواة جميع الجرحى، بينما كان جنوده ينهبون المدينة ويدمّرونها. ولم يبقوا منها الّا على خمسة بيوت. واما سائر ابنيتها فجعلت طعمة للنار.

وفي شهر تشرين الثاني سنة ١٩١٤ احتلّ الالمان بلدةً وعزموا ان يقتلوا اهلها ويحرقوها بالنار، لانهم وجدوا بعض الجنود المسلّحة مختبئين في منازلها. فقامت السيدة ماري ماسون، وهي في الثامنة والعشرين من عمرها، وقدّمت نفسها ضحيّةً عن السكّان كلهم. وقالت انها هي التي اخفت الجنود في بيتها. فأُخذت الى الساحة وأُطلق عليها الرصاص. فذهبت شهيدة الواجب والرحمة.

***

ولم تختصّ البسالة بعمر من الاعمار بل امتاز بها الصغيرات انفسهنّ. ولا يزال الفرنسويون يذكرون دنيز كارتيه، تلك البنيّة اللطيفة العواطف، ولم

تتجاوز التاسعة من سنيها . سقطت عليها قنبلة من احدى طيارات الالمان المحلقة فوق باريس فقالت وهي في النزاع : « ارجو منكم ان لا تقلقوا امي ، وقولوا لها ان جرحي خفيف. » ثم فارقت الحياة .

وفتاة اخرى في الرابعة عشرة من عمرها هامت بحب وطنها فخصصت لخدمته شغلها وعملها وُظفت في ادارة التلفون . ولما دخل الالمان بلدتها ، فرّ الافرنسيون من امامهم . الا ان هذه الباسلة الصغيرة ظلت في مكانها تكلم اهل القرى المجاورة وتعلمهم ان الاعداء قربوا فعليهم ان يكونوا على حذر . الى ان سقطت عليها قنبلة من قنابل العدوّ . فمزّقتها وهي قابضة على سماعة التلفون ، وهذه كلمتها الاخيرة : « احتاطوا لانفسكم . . . ها قد اقترب العدوّ . . . آه . . . ها قد وقعت قنبلة . . . » تلك القنبلة قطّعتها إرباً إرباً وقطعت كلامها .

وما نسي الانكليز الآنسة روبين ، ابنة احد الجنود ، البالغة السادسة عشرة من عمرها ، ذُكر اسمها في الجيش مع من اتوا الاعمال الباهرة لانها اوصلت الى رئاسة اركان حرب المرشال فرنش رسم قناة لا بـه ، وساعدت الجنود باستعلاماتها ، وهي واقفة امام النار ، على تدمير المواقع الالمانية .

ومن عمر الآنسة روبين كانت الآنسة كلوتيلد بوكي ، حفيدة كبير رجال المطافئ في فرنسة . لما وصلت اورطة من المشاة الفرنسويين الى افريشي بالقرب من كلارمون في الواز ، وكانت وقائدها مع العدو في الايام السالفة قد افنت ذخرتها وأنهكت قواها ، فاعتنى السكان بافرادها وأووهم خارج القرية في رواق فسيح الارجاء ، تكفّلت كلوتيلد بتموينهم . وكانت طول النهار ذاهبة آتية حاملة الخضر والفواكه . ولما اقترب الاعداء من تلك النواحي اسرعت الى الرواق ونبّهت الملازم فقال لها : « لا تضطربي يا بنيّتي فان طلبوا شعيراً فارسليهم الينا ونحن نجيبهم بما يلزم » . وما هي بضع دقائق حتى التقت الصبية في زاوية شارع بخيالة منهم فاحاطوا بها ووجّهوا نحوها اسنة رماحهم ، وصرخوا بها : « قفي واصدقينا القول والا حذار حذار من مسدّس الملازم » .

وقفت كلوتيلد ونظرت اليهم نظرة من لا يخاف واجابت : « سأصدقكم الجواب » .

— هل في القرية جنود فرنسيون؟ اياك والكذب والّا . . .

— انا لا اخاف الوعيد والارهاب اجيبكم بما اعرف. لا جند هنا.

قالت هذا وتباعدت. اما البروسيون فاخذوا في السير الى الامام. ثم التفت واحد منهم فجأةً وقال: « اتعرفين يا بنيَّة اين نجد شعيرًا وتبنًا »؟

فأبرقت عينا كلوتيلد وتبسَّم ثغرُها ابتسامة خفيّة واجابت بهدوء كأنها تزدري بالموت: « تجدون مطلوبكم هناك . . . في طرف الشارع . . . على الشمال . . . في رواق . . . »

قالت هذا واسرعت مُجدَّةً وراء الجنود لترى نهاية الرواية وهي بطلها. جدَّت وراء الظفر . . . او الموت . . . طرق أذنيها دويّ بنادق ثم صراخ فتجاديف فسكوت تبعه هتاف الانتصار. ركضت الى الرواق فاذا بسبعة جنود من الاعداء مطروحين على الحضيض مضرَّجين بدمائهم. اما الباقون منهم فقد استسلموا، ولم ينل الفرنساويين الا بعض جراحات خفيفة. فرقصت فرحًا وتنقَّلت من واحد الى آخر مهنئة الجميع، ثم قالت بصوت مؤثر: « اسأَلكم شيئًا واحدًا لا تضرُّوا بهؤلاء ولا تُلحقوا بهم شرًّا ».

ما اكبر من يجمع بين البسالة في الاخطار والحنوّ والرقة!



محاولات في درس جبران

يسوع الانجيل ويسوع جبران

بقلم امين خالد

١

لقد حاولنا، في كل ما تقدّم من ابحاثنا عن جبران[1]، ان لا نتعدى حدود النقد والتحليل وتشريح ادب الفنّان في مؤلفاته تشريحاً علمياً، كما ادركناه بالنظر الى فحوى تلك المؤلفات ومضمونها، وباعتبار الاسلوب الكتابي الذي انشأ به جبران. ولم نتعمد التصريح بآرائنا في الكاتب الكبير لنترك لكل ذي فكر عامل ان يستخرج رأيه باستقلال ويلفظ حكمه لنفسه بحريته، غير مأسور باستنتاجاتنا ولا مقيَّد باستدلالنا.

لم نقل اننا ننبذ «وردة الهاني» او نعارض «آمنة العلويّة» او نمتهن «مرتا البانيّة» او نرفض تعاليم «النبي» او نحتقر «سلمى كرامه» او نستصعب مجاراة جبران بالعاطفة او الفكر في تلافيف الغازه الموجزة او المسهبة.

اجل، لم نتعرض لاصدار احكام كهذه لاننا نعتقدها خارجة عن دائرة النقد التحليلي التي احببنا التمشي عليها. ولكننا ازاء «يسوع ابن الانسان» لا نستطيع السكوت عن ابداء رأينا.

لقد اراد جبران ان يزج الفنّ بالدهاء عندما اتته فكرة تأليف «يسوع ابن الانسان». فاعتقد انه بتزييف شخصيّة صاحب التاريخ العصري العام، يتسنّى له ان يجتذب الى عنوانه وموضوعه قوماً طربوا بانشائه وذهلوا بشهرته التي لم يدركوا سرّها، فيشربهم الروح التي دسّها في الكتاب ليختمر في القلوب وقع «يسوعه» الخاصّ، فتتغشّى اتجاهاته في اعماق نفس القارئ من حيث لا

١) اطلب مشرق السنة الثالثة (٣٠ [١٩٣٢] ٤٢٥ : ٥٢٢ : ٦٥٨ : ٧٥٢)

يدري، فلا يشعر بنفسه الا وهو ضحيّة فساد العقيدة عندما يعود بالفكر الى التأمل بيسوع النصارى الذي عرفه التاريخ و«يسوع ابن الانسان» كما شوّهه جبران.

ان «يسوع ابن الانسان» لا يفرق عن «خليل الكافر» بشيء في الجوهر. ألّا ان «خليل الكافر» شاب صريح لا يحسن اخفاء افكاره بل يترنّم بها متهوّساً بعزم الشباب. امّا «يسوع ابن الانسان» فقد تبلور الدهاء في احشائه وامسى نصّاً لدين ناعم، ورداء شفافاً للشهوة المنغصة لانها باتت مصلوبة دون لذتها. فكان التباس بين مظاهرها وبعض جوانب المحبة النزيهة، وكان اضطراب روحي بداخل النفوس المؤمنة بيسوع الاخاء، والمحبة الروحية عندما عادت للتأمل باتجاهات يسوع جبران.

ولكن الناقد الذي يحلّل كل مقالة من السبع والسبعين قصة التي تألف منها «يسوع ابن الانسان» ويركّب الشخصية الاجمالية يرى بالنهاية ان يسوع هذا على طرفي نقيض مع يسوع العفة صاحب شريعة الزواج المفرد المقدّس.

ان جبران لم يكتفِ بتحريف «العهد الجديد» كما رواه الانجيليون الاربعة، بل قلبه راساً على عقب ليزدرع ديدنه في الاذهان على انقاض مبادئ «المعلّم» الذي عرف بموته على الصليب من اجل خلاص العالم.

وبعيداً عن ابراز تحفة وَجدِ بمسيح الانجيل، لقد قصد قيادة العواطف الى الهيام باللغز الذي جسّم فيه عاطفته المعروفة ليجعله طعنة سامّة في صدور اهل الدين الذين حاربهم بكل قواه من اجل «سلمى كرامه». وكأنّ لسان حاله يقول لهم: لقد اضطهدتم شهوتي وقاومتم اتجاهات رغبتي فلأرينّكم ربكم اباحياً مثلي. وهاكم «اقواله وافعاله كما اخبرها ودوّنها الذين عرفوه»[1]

يوطّئ جبران لكتابه بايضاحات اوّلية تبهر القارئ وتوقفه مشدوهاً يتأمل بموضوع الحلم الاكبر – حلم الجبال؛ ويفتكر بسر القضية العظمى – قضية

١) يسوع ابن الانسان: اقواله وافعاله كما اخبرها ودوّنها الذين عرفوه. – وضعه بالانكليزية فقيد الشعر والفن المرحوم جبران خليل جبران. تعريب الارشمندريت انطونيوس بشير – ٢٢٣ ص. صغيرة، المطبعة العصرية، مصر، ١٩٣٢

اليقظة الروحية — فيروي على لسان يعقوب بن زبدى اهم ما يسترعي الانتباه من اقوال يسوع :

« انظروا الى الارض في ثوبها الاخضر ، وتأملوا كيف طرّزت السواقي اهدابه بالفضة اللامعة .

بالحقيقة ان الارض جميلة ، وكل ما عليها جميل .

ولكن وراء كل ما تنظرون ملكوت ساحكمه واسود فيه . فاذا شئتم ورغبتم من قلوبكم فانتم ايضاً ستذهبون اليه وتحكمون معي .

ان مملكتي ليست من هذه الارض ومجلسي لم يبنَ على جماجم اسلافكم

فاذا كنتم تنشدون مملكة غير مملكة الروح فالاجدر بكم ان تتركوني ههنا ، وتنحدروا الى مغاور امواتكم حيث يعقد ذوو الرؤوس المتوّجة منذ القدم مجالسهم في قبورهم ليعطوا مجداً لعظام جدودكم وآبائكم . »(١

فيظنّ القارئ السطحي ان جبران منخرط في سلك الروحيين الزاهدين عندما يتلو هكذا آيات . ولكنه عندما يعود الى نفسه ويفتكر يرى عكس ذلك : الروحي الزاهد يحييه ايمانه بنعمةٍ يوحيها الله الى قلبه لتكفيه مؤونة الحياة الدنيا ، وتدعمه طيلة المدة التي يعيشها منفياً على الارض حتى يصل في الآخرة الى السماء ، او النعيم الابدي ، او جنة الخلد ، او بعبارة ابسط « غاية الغبطة النهائية » . وفي سبيل هذه الغاية السامية يضحي الروحي بزخرف الارض ليقتصر على الروح المجرَّدة ، غير مجذوب نحو شيء محسوس ، ولا راغب في نعمة ارضيةٍ ، او طيب لذةٍ في اللحم والدم ، بل هو يعتبر التقشف واسطة فعالة لتربية نفسه وتدريبها على خطة انكار الذات والانسلال من المادة الارضية للاحتفاظ بالسر الاكبر — سرّ الايمان — والتوق الى الخفي الصرف الذي سمَّيناه « غاية الغبطة النهائيّة . »

فهل رمى جبران الى هذه الغاية عندما كتب « ان مملكتي ليست من هذه الارض . . . فاذا كنتم تنشدون مملكة غير مملكة الروح فالاجدر بكم ان تتركوني ههنا . . . » كلّا ! انه لم يقصد البتة انسلاله من المادة الارضيّة للوصول الى الروح بل طلب ما يدعوه « روحاً » عن طريق المادة اذ سبق

١) يسوع ابن الانسان ص ٢-٣

واستهل حديثه هكذا: «انظروا الى الارض في ثوبها الاخضر ... بالحقيقة ان الارض جميلة، وكل ما عليها جميل .» كانه يسعى تحت تأثير الجاذبية البهية نحو « ملكوته » رغبة منه بالحصول على النعمة المثلى التي يحسبها كامنة وراء « الجمال العالمي » الذي يشتهي التمتع به لاجل الانتهاء منه الى النطاق الروحي. فهو اذاً بعيد كل البعد عن التجرّد والزهد والروحانية . واذا صحّ قول من قال عن روحانيي العرب انهم سمّوا « صوفيين » لارتدائهم الصوف في سبيل قهر الجسد الترابي واذلاله وخنق الرغبة في الجمال العالمي واخماد الشهوة الدنيئة التي تجعل هذا الجمال غاية نهائية، فما اجدر روحانية جبران ان تلقب « حريرية » لانه يرى «ملكوته الروحي» على اثر النشوة بالجمال الطبيعي الفتّان والتجاوز بالتمتع الى ما بعد المحسوس. فهو يسعى الى هدفه متبعاً خطة الاغراء الايجابي من الحاصل الى اللامتناهي. ولا نحتاج الى القول بان فضيلة الايمان تتحوّل، على هذا الوجه، الى جشع لطيف تجذبه المادة وتجره الى ما يسميه « مملكة الروح » . ولا غرو اذا اثبت جبران في توطئته على لسان « عساف الملقب بخطيب صور » مقدراً « خطاب يسوع » قائلاً : « اجل ، قد عرف الناصري ينبوع ذاتنا القديمة ، وخبر الخيوط التي حاك القدير نسيجنا منها » [1] بعد ايراده ثلاثة امثلة مختارة من اساليب « يسوع » في بدء قصصه وهي:

« خرج الزارع ليزرع زرعه ...

« كان لرجل غني كروم عديدة ...

« راع عدّ خرافه عند المساء فوجد خروفاً ناقصاً ...

فهو ينسب سحر يسوع وعظمة بلاغته الى ضربه على اوتار الامل والحرص والاحتكار المادي ، ويعتبر هذه الاخلاق « ينبوع ذاتنا القديمة ، والخيوط التي حاك القدير نسيجنا منها ». وبتعليق الاهمية كلها على المقدمات الموافقة لشربه ، قد تعامى عن المغزى الاخلاقي او الروحي الذي تنتهي اليه الامثال التي كان يسوع يضربها للناس.

ونريد ان نقول مع القائلين بان صوفية جبران تفترق عن الصوفية القديمة

---

١) يسوع ابن الانسان ، ص ١١

لكونها مشققة . فلعلّ الخيرات ومجموحة النعم تتفق مع الروحية ، او توصل الى روحية معتبرة . ولذلك نريد ان نتعمق في البحث عن ميزات هذه الروحية « الحريرية » ونتتبع سيرها برفقة ابطال الحديث في الكتاب :

ان البطل الاول هو مريم المجدلية . فهي التي تبسط الموضوع وتدلّ على « خلق يسوع » الجبراني ، وهي التي تتبسَّط فيه في منتصف الكتاب ، وهي التي تلفظ آخر كلمة عند النهاية . ولندقق في حديثها عن « اجتماعها بيسوع للمرة الاولى » [١]

« رأيته لاوّل مرة في شهر حزيران . . .

. . . .

ولم اعرف طعم الراحة في فراشي في تلك الليلة . »

لم يكن اقتناع الفكر منيرًا لعقل مريم المجدلية ، ولا كانت التوبة عاملة على صقل وجدانها وتطهيره من اقذار الفساد الماضي على اثر ما سمعته او عرفته من تعاليم المصلح العالية ، ولا كان الهدى مرشدًا قلبها باعجوبة غريبة ومبدلًا دعارتها بعفة وشقاءها بسعادة .

ولا يشعر القارئ بانه تجاه امرأة منتقلة من حياة الفجور والدعارة الى حالة النعمة الروحية ، بل يلقاها وهي ، كما قال النبي ، « بكمال الفرح ووفرة المسرات » ، في موسم العز والانشراح الطبيعي ، في زمن الربيع ، « شهر حزيران » وفي الحقل : « بين الزروع » ، لا في شوارع اورشليم ، وفي مظهر أيتها « مع جواريَّ » ، لا مكبلة بقيود الجريمة وعار الزنى . وفي مثل هذه الظروف المغرية تقول المجدلية : «رأيته لاول مرة » وكانت النظرة الساحرة قد خطفت اوعي من خلد المجدلية فجأة فاثملتها بالدهشة « بحركة جسمه التي لم ترَ مثلها قط في حياتها » وافقدتها خمرة الاعجاب ذكرى مشيته الغير الاعتياديَّة و«اذا كان يسير بسرعة او ببطء » . وفي سبيل الاغراء والتفنن اسقط جبران الحلقة الثانية من سلسلة الحب ، وهي الابتسامة ، وانتقل حالًا الى « التحية » ومنها الى عناء الصد ، الى الانفعال الاكبر ، الى الحلم بالرغبة المكبوتة ، الى الم الجوى . وكلها

---

١) يسوع ابن الانسان ص ١٢-١٧

تتعاقب برموز برقيّة من الافعال المتواليـة.

« وقفت لحظةً ورفعت يدي لاحييه . ولكنه لم يلتفت ، ولم ينظر اليَّ . فبغضته جدًّا . وشعرت بان الدم ينشف في عروقي من شدة الغيظ . وفارقتني حرارة جسدي . . . وكنت ارتجف بكليتي وفي تلك الليلة رأيته في منامي . . . ولم اعرف طعم الراحة في فراشي .»

ولا يلبث عذاب الهجران حتى تنقشع غيمتـه ، فتقول المتيّمة :

ثم رأيته ثانية في شهر آب . . . قلت له « انعم صباحًا »

فقال : « نعمت صباحًا يا ميريام » .

اجل يجعل جبران من يسوع رجلًا يرجع فيتردد حول منزل المجدليـة ، ويتربص تحت شباكها مترقباً الفرص . . . فتبادر الغـانية الى لقاء ساحرهـا الاعظم مجذوبة نحوه ، غير عالمة سرّ اندفاعها العجيب.

نعم تحفّ « بافخر اثوابها الدمشقية المعطرة ، وحذائها الذهبي » الذي اهداه اليها احد عشاقها من قوّاد الرومان. تحفّ المجدلية الىالسلام علىالدنف العطوف؛ فيبادلها التحية هذه المرة متحبباً بلا كلفة مغالياً بتقديسها دون ما تهليـل او تكبير ، بل مكتفياً بهذه الجملة « نعمت صباحاً يا ميريام »

نظرة في الحقل ، تحية ، لقاء . فخم بعد تجربة الصد ، « اثواب معطرة وحذاء ذهبي » ، هذا ما حمل يسوع جبران على رفع المجدلية الى سدة الشرف ودعوتها « يا ميريام » اي « يا مطهرة ، يا مقدسة » . . . ولنقابل المطالع بين هذه المجدلية ومجدلية الانجيل ، وبين هذا اللقاء وذاك ! . . .

وتستأنس الغانية المطهرة بنظرة معنوية ، فتدعو يسوعها الجبراني الى بيتهـا « لشرب الخمر ويكسر الخبز معها » فيجيبها :

« نعم يا ميريام . ولكن ليس الآن »

وتبعث المتكلمة هتافها الحنون : « ليس الآن ، ليس الآن ، هكذا قـال لي . وكان صوت البحر في هاتين الكلمتين ، وصوت الريح والاشجار . وعندما قالها لي تكلمت الحياة مع الموت .»

لم تهتف المتكلمة لكلمة الايجاب « نعم » التي يجب ان تنعشها ، ولم تهتف للفظة السامية المقدّسة ، المطهّرة ، المتمثلة بالتحبب العاري عن الكلفة «ياميريام»؛ ولكن لهاتها رقصت طرباً وفؤادها تدفق حبورًا عند هذه العبارة « ليس الآن » ،

لان بها من عذوبة الوعد وانشراح الامل آية الحياة المندفعة الى الامام ، وفيها من سناء الشرار عربون منير بالدفين المستور تحت رماد الظروف الحاضرة ؛ فهذا الشعاع الحيم وذلك الخيط الحريري هما الوتران القلبيان اللذان اثلجا صدر المجدلية وافرحتها موسيقاهما كأن فيها «صوت البحر» و«صوت الريح والاشجار».

ثم يغوه يسوع جبران بخطاب ودّي اقلّ ما فيه انه قائم على التشويق والرغبة في الاستئثار بالحب ، فيكاد لا يسمو في شيء عن خطب العشاق والمغرمين.

نحن لا ننفي ان جبران يصوّر « يسوع ابن انسان » ، ولكننا نستصعب الاعتقاد بان الحب الانساني الكامل قائم على التشويق للغايات الانانية فقط . وهل يوجد في رواية المجدلية شيء لا يحكي عنصراً اساسياً من عناصر الانانية ؟ !

واذا كان هذا شأن المجدلية في البدء مع يسوع ، او على الاصح شأن يسوع مع المجدلية ، لانها هي الحرية بان تكون بطل الكتاب ، ويسوع بجانبها شخصية ثانوية تخدم عاطفتها ، وفي عاطفتها تجلو المظهر الحسي ؛ فلنلق نظرة على حديثها في قلب الكتاب ونحاول تفهم ذلك الحديث دون ما تأويل عويص او شرح مستبعد نستمدّه من غير العبارات الجبرانية ، فنقرأ عنوان تلك المقالة الذي هو نفس الجملة الافتتاحية فيها وهي :

« كان فمه كقلب الرمانة » (١

واننا لا ندري كيف يتحول معنى هكذا عبارات عما يتبادر الى الذهن من الشهوة . . . ولاسيما عندما تردف قائلة : « بيد انني عندما وقفت امامه وخاطبته ، كان رجلاً ؛ وكان وجهه يملأ عين الناظر اليه قوة . وقد قال لي : « ماذا تريدين يا مريم ؟ . . .

« انني لم اجاوبه ولكن اجنحتي احتضنت سري فسرت الحرارة في جسدي »

وهذا ايضاً تصريح يغني عن كل تفسير يرجع بحديث المتكلمة الى الصوفية او الروحية البعيدة عن رغائب الذات الحيوانية . اشتهاء في نفس المتدلهة ، وانعطاف ايجابيّ عند السائل « ماذا تريدين يا مريم ؟ » وانشراح حسيّ عند المترنمة

١) يسوع ابن الانسان ، ص ١١٠–١١١

« فسرت الحرارة في جسدي » . وهكذا نرى ان نشرة الفرح وكال المسرات قد بلغت في قصة المجدلية غايتها او كادت

بقي علينا الالتفات الى الكلمة النهائية لمريم المجدلية وهي آخر مقالة في الكتاب وعنوانها «بعد ثلاثين سنة »[1] عن بشارتها للرجل الذي احبته واحبها ، واوصلها هذا الحب الى حيث ترى نفسها أرفع رتبة عن الآخرين ، وتتبجح بما وصلت اليه مقتنعة بذلك كأن لا فرق بينها وبين وردة الهاني التي وقفت على ذروة الشهود يوم فاضت قريحتها بذلك الخطاب الممتع[2] . . .

وان حديث المجدلية لا يفرق عنه الّا بكونه فلسفياً موجزاً واكثر رموزاً . ولكن الغاية لم تتغير والهدف المقصود هو هو . والنصغ اليها تخطب مشيرةً الى قول « فريق » من الناس ان يسوع « وُلد من عذراء » :

« ولكنكم لا تعرفون الامهات اللواتي يذهبن الى القبر في عذريتهن ، ولا الرجال الذين يذهبون الى قبورهم مختنقين بعطشهم . انتم لا تعرفون ان الارض زفت الى الشمس ، وان الارض هي التي تبعثنا الى الجبل والى الصحراء »

وهكذا يقضي جبران ، او يظن انه يقضي ، على اهم العجائب التي تتناقلها التقاليد والتعاليم الدينية ، الا وهي معجزة الحبل بلا دنس ، اذ يعتقد انه جعل كثيراً من الامهات بتولات مثل والدة يسوع . . .

هذا فضلاً عمّا في عبارته الثانية من النزعة المادية ، تلك النزعة الظاهرة في كلام كل ابطاله وبطلاته ، كما سنرى في الجزء القادم .

١) يسوع ابن الانسان ، ص ٢١٤–٢١٥

٢) اطلب المشرق (٣٠ [١٩٣٢] : ٥٢٨)

الفقه الاسلامي

تاريخه وتطوراته

بقلم الاب لامنس اليسوعي

٢

طرائق المذاهب السنية

نسب بعضهم الى ابي حنيفة فضلًا جزيلًا بتوهمهم انه فهم ما لم يفهمه نظراؤه من وجوب احلال « الرأي » محلًا عالياً في الفقه. وعاب عليه غيرهم انه حطّ، في ذلك، من اهمية السنة. ونحن اذا اعتبرنا هذا المظهر نرى ان الحكمين كليهما على نصيب من التطرّف.

والواقع ان مذهب ابي حنيفة العراقي الاصل اصطدم، منذ اوائل عهده، بالمذهب المدني المنتسب الى الامام مالك. وكان هذا يرى من واجبه ان يدّعي الاخذ اولًا بالسنة النبوية وبجقوقها التي لا تزول. وان من الاسباب التي صرفت الامام مالك عن الاستناد الى القياس والرأي ان « الفقه » لم يكن في زمانه قد انفصل الانفصال كله عن « الكلام »، وأنف علماً يهتمّ بالحقوق خاصة. اما الامام الشافعي « فالقياس » عنده لا يتميز عن « الرأي ». هذا وان الحنابلة ليظهرون اشدّ وطأة من المالكية على « الرأي »، فلا يأخذون به الّا في اقصى الحاجات، في المشاكل التي لا يجدون لحلّها نصاً قرآنياً ولا حلًا سابقاً في السنة. ولا يخفى ان هذا الميل يدفعهم الى الاكثار من قبول الاحاديث حتى اضعفها واوهنها. ولقد يشعر من يطالع كتابات ارباب الجدل من امثالهم كابن الجوزية († ١٢٠٠) وابن تيمية بروح ضيّق يدفع به حالًا الى تذكر « الكتبة » الذين يشير اليهم الانجيل. يظهر الحنابلة، كما يظهر اولئك « الكتبة »، منصرفين

بكليتهم الى حرفية التقليد ، فلا يرون الخلاص الّا بالتقيّد بما ورد عن « السلف الصالح » ، حتى ان السنّة تصبح شعارهم ودثارهم ، كما يقول الذهبي (تذكرة الحفاظ ٤ : ١٢١) ولا يدعون شيئاً في بيوتهم « الا مستقبلَ القِبلة تعظيماً لها . »

هذه كانت حالة المذاهب الفقهية ، اذ ظهر مذهب الامام الشافعي فحاول ان يوفّق بينها ويجد الحدّ الاوسط بين الحنفية وخصومهم من المالكية والحنابلة . فنتج من ذلك ان هذا المذهب نجح ، في ما قام به من طرق الترجيح ، بان حدّد ، على نوع افضل ممّا اتته المذاهب السابقة ، قيمة كل من « الاصول » الأربعة ؛ وقيمة « الاجماع » خصوصاً ، فدقّق في نصيب « القيـاس » ، وعيّن تقريباً حالات الاخذ « بالرأي » ، فمنع ما قد تجرّ اليه تلك التخريجات والمقابلات من المبالغات في الاستنتاج وسوء الاستعمال . ولهذه الاسباب يعدّ الكثيرون الامام الشافعي منشئ علم الفقه .

اما وقد قمنا بما تقدّم من التحفّظات فبقي علينا القول ان ميول هذه المذاهب وطرقها تظهر متباينة في الظاهر اكثر منها في الواقع ، كتفضيل بعضها الحديث على الاجماع مثلاً ، او اخذ غيرها بضدّ ذلك . ثم ليس مذهب منهـا يمكنه ان يستغني عن الرأي او القياس . اما ما تختلف عليه فعلاً هذه المذاهب فهو نقاط ثنوية متعلّقة بتصنيف بعض الاعمال وترتيبها ، وبعض قرارات لا تمسّ الجوهر في شيء . وكلها امور يمكن للمسلم ان يأخذ بايّ منها دون ان يضطرب ضميره او يخالجه ريب بصحة ما يفعل . هذا وان اتفاق المذاهب يقرّر الشريعة العامة او الاجماع . اما اختلافها فلا ينتج الّا احكاماً خاصّة تُفرض على تبّاع المذهب المقرّر فقط . وعلى كل مسلم ان ينتمي الى مذهب من المذاهب الاربعة السنية ، ويسير في حياته الدينية والمدنية وفقاً لفقه مذهبه . ولكن ليس عليه ان يظلّ طول حياته منتمياً لمذهب واحد . بل يمكنه ان ينتقل من مذهب الى آخر ، كما فعل ابن عبد البرّ الاندلسي (†٤٦٣ هـ) مثلاً فانه انتقل من المذهب الظاهري الى المذهب المالكي ، ثم مال اخيرًا الى اتبـاع مقرّرات المذهب الشافعي . وكذلك المقريزي († ١٤٣٠) المؤرّخ الشهير فانه كان حنفياً فانتقل الى المذهب الشافعي ، ثم جنح سرًا الى الظاهرية ، فضلاً عن ميله وتعصّبه للفاطميين .

وليس ما يمنع وجود مذهبين او اكثر في العائلة الواحدة، فيمكن الاب ان يكون من مذهب وابنه من مذهب آخر. بل يجوز للقضاة انفسهم المنتمين لمذهب مقرّر ان يطبّقوا في بعض احكامهم مقرّرات مذهب مخالف. كما يفعل قضاة المالكية في ما يخص الوقوف، فانهم يطبقون احياناً احكام الفقه الحنفي، وهو اكثر مرونة من فقههم. كل هذا يُشبه ما نتحققه عند المسيحيين من ان اللاهوتي يمكنه، في حكم ما، ان يستند الى التوميين او المولينيين او الاغوسطينيين او السكوتيين او الى غيرهم من ارباب اللاهوت. اما العلماء الذين لا ينتمون الى مذهب ما فانهم نادرون جداً، على قول الذهبي، (تذكرة الحفاظ ٣: ١٩٦) نذكر منهم ابن تيمية. وهم يستندون رأساً الى القرآن والسنة.

وقد رأينا، تسهيلاً لفهم ميول المذاهب الاربعة واتجاهاتها المختلفة، ان نعرض عليها مشكلاً صريحاً قد كثرت المناظرات بشأنه في هذه الايام ولاسيما منذ حركة الكماليين في تركية وجرأتهم التجديدية في اللغة، وهو: هل يجوز ان يترجم القرآن؟

لا يخفى ان جميع المذاهب تتفق على اهمية القرآن الطقسية، اهمية خاصة فوق كل شكّ واعتراض. ثم ان الشافعي يفرض على المؤمن ان يتلو صلاته باللغة العربية، وهو الحدّ الادنى من واجباته. فعليه، اذا شاء نيل الاجر جزيلاً، ان يعمل على التضلّع من هذه اللغة اداة الوحي الخاتم النبوّات. اما ابو حنيفة، الفارسي الاصل، فلا يرى مانعاً من الشذوذ عن هذه القاعدة لفائدة المؤمن الاجنبي الذي لا يمكنه ان يلفظ بصحة ودقة آيات الصلاة باللغة العربية. وهناك مسألة ثانية: هل يجوز تعليم القرآن لغير المسلمين اذا جرّ هذا التعليم الى ترجمة بعض النصّ المذكور؟ اما ابو حنيفة فلا يجد صعوبة في ذلك. وهو يستند في حكمه الى بعض الاحاديث فيظهر بمظهر الوفاق، هذه المرّة، مع المذهب الحنبلي. اما الشافعي فيذكر وجهتي المشكل من حيث الفائدة والضرر، ولا يعطي حكماً نهائياً. واما مالك فيرفض وحده هذا التجديد الخطر. وكذلك يرفض، دون استثناء، جواز ترجمة القرآن ترجمةً كاملة. بينا يظلّ الشافعي متردداً بين القبول والرفض محافظاً على مركزه المذكور سابقاً. اما الحنفية

والحنابلة فيوافقون على الترجمة على شرط ان تكون موضوعة بين الاسطر العربية ، كما نرى في التراجم الفارسية والاوردية والمالزية وما شاكلها ، او تكون مقابلة للنصّ العربي.

بعض الاختلافات العملية في مقررات المذاهب

اشرنا ، في ما تقدّم ، الى كثير من الاختلافات النظرية بين المذاهب السنية والى شيء من اتجاهات ميولها في ما خصّ بعض الاحكام العامة. ولكن هناك كثير من التطبيقات الخاصة بالمحيط العملي لا تتفق عليها احكام المذاهب نرى من المفيد ان نعرض لشيء منها . من ذلك مسألة الختان التي يعتبرها كثير من الناس علامة فارقة للمسلمين بل شرطاً واجباً للدخول ضمن الجماعة الاسلامية. وانهم لعلى وهم . فان المذاهب لا تتفق على وجوب الختان . بل ان بعض مجاميع الفقه لا تذكره مطلقاً او، ان ذكرته، فعرضاً مشيرةً الى انه يمكن تأخير هذه العملية حتى يبلغ الغلام الخامسة عشرة من عمره.

ومن ذلك مناقشات عديدة في طرق اقامة الصلاة . واي الصلوة يجب ان يذكرها الحاضرون ، وراء الامام، «ذكراً جهرياً» وايها يجب ان يذكروها «ذكراً خفياً» ؟ فالشافعية يقرّون الذكر الجهري بخلاف الحنفية. وهل يجب ارسال اليدين على طول الجسم اثناء الصلاة كما يقرّر الامام مالك ، ام لا ؟ والى ايّ علو يجب رفعهما اثناء «التكبير» ؟ واين يجب وضع اليدين وقت الصلوة أفوق السُرّة ام تحتها ؟ ومن ذلك ان الصلاة على الجثة في الجامع التي يحرّمها الامام مالك لا يمنعها الشافعي ولا غيره من الائمة . ويستدلّ كل منهم الى عدد من الاحاديث يستخرج من بعضها التحليل ومن البعض الآخر التحريم . ثم هل تظلّ الصلاة جائزة اذا اتت امرأة فجلست جنب المؤمن او في وسط المصلّين ؟ وهنا نشير الى ان ابا حنيفة يظهر معاكساً للنساء . وهناك خلاف ايضاً في ما خصّ « زكاة الفطر » التي يوزّعها المؤمنون في آخر رمضان ، فبينا يعتبرها الشافعية « فرضاً » « الزاماً » ، يراها الحنفية « واجباً » والواجب اقل الزاماً من الفرض ، اما المالكية فلا يرون فيها الّا « سُنّة » او عادة تنوية . وهناك ايضاً مدلول « الخطأ » (المخالف

« العمد » وهو المخالفة غير المقصودة الواردة لا عن عمد وتصميم : فالمعتزلة يتغاضون عن « الخطأ »، وكذلك الظاهرية الى حدّ ما، بخلاف المذاهب الاربعة التي تعتبر في ذاك العمل تبعةً نسبية.

والمذاهب المذكورة تختلف ايضاً في مسألة غسل جثة الشهيد، اي الذي يُقتل في الجهاد، والصلاة عليه. وكذلك في مسألة تحريم الخمر (عصير العنب) والنبيذ (عصير التمر). فالحنفية وحدهم يحلّلون النبيذ.

ومن مظاهر الخلاف ايضاً : هل يمكن للمسلم ان يقول : « انا مؤمن » دون ان يضيف الى شهادته « ان شاء الله ». يقرّر ابو حنيفة ذلك معاكساً لسائر المذاهب.

ثم ما هو الحدّ الادنى لقيمة الشيء المسروق حتى يحكم القاضي بقطع يد السارق؟ هو عشرة دراهم في فقه الحنفية، وثلاثة عند غيرهم. وهناك خلاف ايضاً في ما خصّ الشهادة القضائية في الموادّ التي تكون من صلاحية النساء كالحمل وما اليه. فبينما يتطلب الشافعي شهادة اربع نساء، يفرض مالك وجوب شهادة امرأتين فقط، ويكتفي ابو حنيفة والزيديين بشهادة امرأة واحدة.

وما هو مصير اسرى الجهاد؟ اما ابو حنيفة فيحكم عليهم بالاعدام او بالعبودية. واما الشافعي فيسمح باطلاقهم مقابل فدية، او بدون فدية احياناً. فترى ان تساهل ابي حنيفة متقطّع غير مطّرد. على انه يتساهل بان يتزوّج المسلم امرأة من اهل الكتاب. وهو ما ينفر منه الشافعي بحجة غريبة، وهي ان اهل الكتاب الحاليين حرّفوا نصّ كتبهم فققدوا الحقوق بان يعتبرهم المسلمون من « اهل الكتاب » فعلاً. وليس بين تباع المذاهب الاربعة من يعادل الحنابلة تعصّباً وتشديداً على غير المسلمين.

ولننتقل الى غير ذلك من الحوادث والحالات : كيف ومتى يجب على المُفطر في رمضان ان يعوّض عن افطاره؟ — أيجب على الجاحد التائب ان يقوم بجميع الصلوات والاصوام التي تركها منذ جحوده؟ يتفق ابو حنيفة والشافعي على اهمال هذه الحسابات الدقيقة الصعبة مخالفين بذلك المذهبين الباقيين. — أيجب ان يُعتبر الطفل اللقيط مسلماً؟ يجيب ارباب المذاهب بالايجاب، الا ابو حنيفة فانه

يجيب بالنفي اذا وُجد اللقيط في مكان يسكنه غير المسلمين . ويعتبر ابوحنيفة ايضاً انه اذا أُلقي القبض على مسلم خارج عن السنة الى احدى البدع ، فيجب ان يُدعى الى الاستتابة قبل ان يُحكم عليه . وهي دعوة لا يهتمّ بها المالكية. وهؤلاء بالاتفاق مع الشافعي يحكمون بالاعدام على الجاحد دون ان يميزوا بين الجنسين . اما ابو حنيفة فيميز ، ولا يعدم المرأة الجاحدة بل يكتفي بحبسها . وهناك خلاف في دية الذمّي الذي يقتله المسلم . فهي تبلغ نصف دية المسلم في المذهب المالكي ، ولا تتجاوز ثلثها في مذهب الشافعي . وهنا ايضاً يخالف ابو حنيفة فيحكم بدفع الدية كاملة اذا كان المقتول من اهل الكتاب.

ولا يخفى ان ليس من مخرج لمشركي جزيرة العرب الّا الاسلام او الموت. لا خلاف في هذا . اما مشركو سائر الاقطار ، فيسمح لهم مالك ان يدفعوا الجزية فقط الا اذا كانوا من قُريش . ولا يوافق ارباب سائر المذاهب مالكاً على هذا الحكم . ثم هم يختلفون ايضاً في ما خصّ العلاقات الزواجية مع هؤلاء المشركين . ثم ان المالكية يحرّمون على الذميين دخول الجوامع لئلّا ينجسوها. اما الحنفية فلا يرون بأساً في ذلك.

كل من اهان النبي او اظهر قلة الاحترام لذكره يجب ان يُعاقب عقاباً صارماً قد يصل الى الاعدام في رأي ارباب المذاهب،الا ابا حنيفة الذي يتساهل في الامر ان كان المذنب من اهل الكتاب . ثم ان ابا حنيفة يُقرّ اعدام المسلم اذا قتل ذميّاً ، وهو ما لا يوافق عليه الباقون . وهناك مسألة الاعارة فان مالكاً وابا حنيفة لا يريان بأساً في ان المستعير آلة او ماعوناً او ما شاكل يعيره لغيره دون ان يستأذن من صاحب القطعة . وهو حكم لا يقرّه الشافعي بل يرى ان اذن صاحب القطعة ضروري في ذلك . اما الخلاف الغريب ففي المدة الشرعية للحمل . فان المالكية والشافعية يبالغون في هذا الامر فيرون ان مدة الحمل قد تبلغ اربع سنوات . بل ان بعض المالكية يصل بها الى ست سنوات . اما الحنفية فلا يتجاوزون في ذلك السنتين . ومن المفيد ان نذكر ان اقصى مدة للحمل في مذهب الشيعيين لا تتجاوز العشرة اشهر . وهكذا فان مالكاً والشافعي يحكمان ان الابن المولود اربع سنوات بعد وفاة ابيه المزعوم يحق له

المطالبة بميراثه امام المحاكم ! واننا نختم هذه السلسلة من الاختلافات بذكر تضارب آراء الائمة في تحريم بعض اللحوم وتحليلها كلحم الخيل ، ولحم الضواري والكواسر . ولا يحلّل هذه الا الامام مالك وحده.

المخارج والحيل

لا شك ان المطالع يستنتج من كل هذه الاختلافات في وجهات النظر وطرق التطبيق انها ادّت الى مشاحنات عديدة ومناقشات ملأت المجلدات الضخمة . وقد اظهر فيها العلماء مقدرةً غريبة على المناظرة والتلاعب بالقياسات المتنوّعة حتى توصّلوا ، وهم على اعظم مظهر من الجدّ ، الى فرض حوادث غريبة او مستحيلة كحقّ الجدّ من الدرجة الخامسة بميراث حفيد حفيده المتوفّى دون عقب ، وكالحوادث الوراثية الناتجة من الزواج بالجنّ ، ولا يخفى ان الفقه يقرّ اجمالاً امكانية هذا الزواج . . . وقد جرّت صعوبات المعاملات وشدة وطأة الشريعة في بعض الاحكام الى السؤال بايّ « حيلة » يمكن الانسان ان يخرج منها فيتخلّص من الواجب الشرعي او من اليمين المحرّجة او من حكم لا يوافقه ؟ فنشأ عن ذلك علم مستقلّ اظهر فيه تلامذة ابي حنيفة من امثال ابي يوسف الشيباني كل ما خُصّوا به من موهبة غريبة على الاستخراج وتحوير الاحكام الشرعية حتى كان من ذلك شعبة مهمة في الفقه الحنفي تُعرف « بالمخارج » و« بالحيل » ايضاً اشارةً الى ما تولي صاحبها من المقدرة على الخروج من نصّ الشريعة او من حيلة تخلّصه من احكامها[1] . وقد أُلّف في هذه « المخارج والحيل » كتب خاصّة حتى في الفقه الشافعي الذي كان اولاً من خصوم هذه الطريقة . اما في المذهب الحنبلي ، وهو معاكس « للحيل » ، فان ابن قيّم الجوزية يقبل منها ما يمكن المؤمن من الوصول الى غايته المشروعة بطرق محلّلة . وان هذه المجاميع من المناقشات والحيل وطرق التخلّص من بعض الفروض التي يشير بها الفقيه على من يستشيره قد ادخلت في الفقه السني عدداً من التقاليد والاستعمالات المستندة في اكثرها الى الخبث وسوء النيّة . فهي

١) الطب المشرق ٢٩ [١٩٣١] : ٦٤١-٦٤٧

تمكن مستعملها ان يحافظ في الظاهر، على نص الشريعة او حرفها كي يعبث بروحها في الحقيقة. من ذلك ان القرآن (٥ : ٩١) يشير الى ما يجب على الحالف عمله كي يقوم «بالكفارة» عن يمينه. على ان هذه اليمين يجب ان تلفظ مشروطة بالقول «ان شاء الله». والواقع ان هذه الزيادة، او الاستثناء، هو ما يفتح الباب واسعاً «للحيل». من ذلك ايضاً ان ارباب الحيل بادخالهم بعض المبادئ والاعتبارات الثنوية يتوصلون بسهولة الى تحوير درجة الفروض وكثيراً ما يحولون «الواجبات» الى «نوافل» وبالعكس. كما نرى في الآية التالية: يقول القرآن (٤ : ٣) «انكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع...» وظاهر ان ذلك تساهل لا اجبار. على ان بعض الفقهاء، من الظاهرية اولاً، استخرجوا من الآية واجباً محتماً حتى انه يحرّم العزوبية. وهو مظهر من مظاهر انتصار المخارج والحيل. تلك الطريقة التي تمكن اربابها من ان يكتشفوا في نص القرآن او في خفايا الحديث احكاماً تطابق اغرب الحوادث وتسهّل على من اراد الخروج من واجب حالة ما.

هذا وقد فتحت «المخارج» باباً واسعاً للمجددين والمصريين فاستفادوا منها الشيء الكثير، ونالوا من المحافظين «الذين يقفون عقبة كأداء في طريق التقدم العصري»...

(له صلة)



الامثال والاساطير اللبنانية

المختصة باشهر السنة الشمسية

بقلم لحد خاطر

٢

شباط

يقال شباط ، واشباط ، وسباط بالسين المهملة ، وهو شاباطو البابلي . ويأتي بالسريانية بمعنى الجلد والضرب بالسياط . وتقول العامة في لبنان : « شبط البيت » بمعنى كنسه ونظفه بالماء ، و«المشباط» عندهم ضرب من المكانس ، يؤخذ من نبات معروف . «وشبطو» السريانية معناها الواسع ، السط ، ولعل في ذلك اشارة الى ما ينهمل فيه من الامطار الغزيرة المدرارة . ويقال ان الشمس تدخل فيه برج الحوت . ويقابله بالافرنجية « فِفْريه » المأخوذة عن فبرواريوس اللاتينية ومعناها « المطهر » نسبة الى ما كان يقيمه الرومانيون من ١٣ الى ٢١ منه من اعياد التطهير والتكفير عن الذنوب . وقد كانوا يصورونه بهيئة امرأة تلبس وشاحاً ازرق ، وقد حملت كناراً بيدها ، والى جانبها آنية من خزف يتدفق منها الماء الغزير ، وعلى رجليها طير البحر المعروف بمالك الحزين . وبذلك كانوا يشيرون الى ما يتساقط فيه من الامطار الكثيرة التي تكاد تغرق الارض ببحر من المياه .

ولقد كان هذا الشهر في اصله ٢٩ يوماً في السنين العادية ، و٣٠ في النسنة او الكبيسة . فلما اسمى الرومانيون شهر سكستيليس عندهم ، المقابل لآب من اشهرنا ، باسم اغسطوس قيصر تكريماً له اخذوا من شباط يوماً اضافوه الى

اغسطوس حتى لا يكون اقل اياماً من شهر يوليو المسمى باسم يوليس قيصر، احد سلفائه. وهكذا اصبح شباط على ما نراه في السنين العادية ٢٨ يوماً، وفي الكبيسة او النسيئة ٢٩.

***

والاساطير اللبنانية تصوّر شباط رجلاً من اهل الظرف يحب الدعابة، على تقلُّب في الرأي، وخبث في الاخلاق، وكُره شديد للعجائز من النساء يدفعه الى السعي في سلبهنّ الحياة؛ وقد توسموا بتمديد كُرهه وبغضه الى الشيوخ من الرجال ايضاً. ولهذا ترى الطاعنين في السن من الجنسين في بعض انحاء لبنان، متى قرب شباط، يرسمون صليباً بالكلس على ابواب بيوتهم دفعاً لاذاه وشره، تشبُّهاً بما فعله بنو اسرائيل في مصر لوقاية ابكارهم الذين استبقاهم ملك الموت حينما اجتاح ابكار المصريين. (خروج: ف ١٢)

ولعل الاسطورة المروية عما يتعمده شباط للشيوخ من الموت والهلاك ذات علاقة بمعتقد الفينيقيين الذين كانوا يؤلّهون قوى الطبيعة ويعتبرون الشتاء رمز الفناء والموت اعتبارهم للربيع رمز الحياة والانماش والانتاج، ومعتقدهم ذاك كان يدفعهم الى اقامة حفلتين مختلفتين لالههم ادونيس، مثال الشمس، الاولى ابان الشتاء احتفالاً بموتــه المرموز به الى موت الطبيعــة، والثانية ابان الربيع احتفالاً بقيامته المرموز بها الى تجدد الطبيعة وعودها الى الحياة.

وهناك من ينسب الاسطورة المذكورة الى ايام « برد العجوز » المعروفة عند العرب، وهي سبعة: اربعة منها في آخر شباط، وثلاثة من اول اذار، واسماؤها: صِنّ، وصنبر، ووبر، وآمر، ومؤتمر، ومعلّل، ومطفئ الجمر. ومما قالوه فيها ان عجوزاً دهرية كاهنة من العرب كانت تخبر قومها ببرد يقع في آخر الشتاء يسوء في اثره في الماشية. فلم يكترثوا لقولها حتى فوجئوا به فاتزل بهم الاضرار الفاحشة. وقيل ايضاً ان عجوزاً كان لها سبعة بنين سالتهم ان يزوجوها والحت فقالوا ابرزي للهواء سبع ليالٍ حتى نزوجك. ففعلت، والزمان شتاء، ثم ماتت في السابعة.

وهذه الايام السبعة يدعوها اللبنانيون « بالمستقرضات » ويقولون ان شباط

استخدمها لاهلاك العجوز . وللعجوزهم اسطورة يتداولونها ملخصها : ان عجوزاً ارادت اتقاء شر شباط ، عدوّ العجائز اللدود ، فاعدّت عدتها من طعام ووقود وملابس . وعلم شباط بامرها فصمّم على الفتك بها . ولما صار اليه الحكم في الطبيعة اخذ يرمي الارض بالبروق والرعود والصواعق والامطار . ثم ارسل عليها ريحاً شمالية باردة كستها بالثلوج والصقيع ، وكادت تقضي بالموت على كل ذي حياة . اما العجوز فقبعت في منزلها ، مع ابنة لها كانت تعينها على مكافحة شباط ، وأكبت على ايقاد النيران ، والتدثّر بالملابس الثقيلة ، وتناول المآكل والمشارب المدفئة . حتى اذا صار شباط في عقده الثالث تنفست الصعداء وقالت متهكمة : « راح شباط وفي قفاه مخباط . »

وسمع شباط مقالها فازداد حنقاً ولم يرَ بدّاً من اطالة ايامه ، فجاء الى رديفه اذار يستقرض منه ثلاثة ايام يستخدمها في القضاء على العجوز وقال له : « يا اذار ، يا ابن عمي ، ثلاثة ايام منك ، واربعة مني : لاوقد العجوز ردانها ، وابيعها فدانها . » والردان دولاب كانت العجائز اللبنانيات يستعملنه لتسليك الحرير ، والفدان الزوج من البقر .

وفي رواية ثانية انه قال : « لاوقد العجوز دولابها ، واضع رأسها بين ركابها . »

وفي رواية ثالثة : « لاهلك العجوز وبنتها ، واشوّفها عاقبة عنتها . »

فرقّ آذار له واقرضه ما طلب . ومضى شباط في انتقامه في الايام المستقرضة ، وقد فرغت عدة العجوز . وبعد ان اوقدت حتى دولابها ومغزلها للاستدفاء ، واصبحت لا تملك ما تدفع به اذى البرد ، تمكن شباط من اخماد انفاسها ، وتم له النصر عليها .

وعند قدماء الانكليز والاسكتلنديين حكاية تقليدية كهذه مآلها ان آذار يستعير ثلاثة ايام من نيسان ، وهذه الايام الثلاثة كانت عندهم ايام شؤم . فشيوع هذه الحكاية باركانها المتقاربة عند العرب والانكليز واللبنانيين يدل على ان لها اصلاً واحداً يعود الى الخرافات الوثنية القديمة .

ويخاف اللبنانيون المستقرضات وامطارها وثلوجها ولا يأمنون على انفسهم من برد الشتاء الا بعد زوالها . ومن اقوالهم في ذلك : « في المستقرضات عند

جارك لا تبات.» – «لا تقول خلصت الشتوية حتى تخاص المستقرضات المنكية» – «ما لك طرش يقوم الا بعد مستقرضات الروم.»

وينسبون الى شباط التقلّب لتقلّب الجو فيه بين صحو ومطر. ويتهكمون على المتقلّب في مبادئه وافكاره ويتهمونه انه من مواليد هذا الشهر ومن اقوالهم في ذلك: «شباط ما على كلامه رباط.» - «امش على غيم كانون ولا تمش على غيم شباط.»

وشباط عندهم اعور منحوس. فاذا اكفهرّ الجوّ فيه وامطر قالوا: «غمض شباط عينه». وان صفا وصحا قالوا: «فتح شباط عينه.»

وينسبون الى شباط النقص ويشبهون به كل ذي نقيصة ويقولون في ذلك: «فلان مثل شباط بيعير وبيستعير وبيظل ناقص.»

ويصفونه ايضاً بالغدر: «راح شباط الغدار واجا ادار الهدّار.»

وشمس شباط وماؤه عندهم مضرّان. فالشمس تمرض كل من تعرض لها، لذلك يتقونها شديد الاتقاء. ويوصون بمحاذرتها. وماء المطر فيه مؤذٍ فلا يستحمون به، ولا يدعونه يسيل الى آبارهم لئلا تأسن وتتولد فيها الديدان والهوامّ. ومن اقوالهم في ذلك: «شباط غيمه وهواه خير من شمسه وشتاه» اي مطره «وشمس شباط تخبط الراس بالمخباط»، وقولهم بلسان العجوز: «شمس شباط لكنتي (لانها تكرهها وتريد لها الضرر) وشمس ادار لبنتي (لانها تودّ لها ما هو اقل ضرراً) وشمس نيسان لي ولشيتي» (لانها تريد لنفسها النافع المفيد)

وقد مهروا بمعرفة تأثير الشمس في الجسوم على اختلاف الفصول فقالوا في ذلك: «شمس الربيع بتسرّ (من السرور)، وشمس الصيف بتحرّ (من الحرارة)، وشمس الخريف بتهرّ (اي تسقط الورق) وشمس الشتاء بتضرّ (من الضرر).»

وبرد شباط يضعف الاجسام ويفقدها النضارة والصحة. ويقولون في ذلك ان آذار سأل شباط وهو راحل: «كيف فارقت الناس يا اخي شباط؟» فاجابه: «تركتهم صفر مبعجرين (متورمين) على المواقد قابزين (جاثمين).»

واذا مضى شباط وتصلبت الخضراوات الشتوية كالفجل والخس واللفت وما شاكل قالوا: «داس او غاط عليها شباط»

وتراهم رغم مطاعنهم بشباط واتهامهم اياه مختلف التهمات ، يعطفون عليه حيناً ويقولون عنه انه« ابن حلال » اي طيب القلب. ومن اقوالهم في هذا المعنى: « شباط لو شبط ولو لبط ريحة الصيف فيه .» وذلك لقربه من فصل الربيع . وينسبون الى برده منع الجراد والجدب :« برد شباط يمنع الجراد والقحاط » اي القحط او المحل ، لانه يميت بيوض الحشرات التي تفتك بالمزروعات

وعندهم ان شباط على شدة برده تدبّ فيه السخونة في الطبيعة بجمار غير منظورة تقع من السماء ، وموعد وقوعها ٧ و ١٤ و٢١ منه ، ويزعمون ان الاولى تسخن التراب ، والثانية الماء ، والثالثة الهواء . ومن ثم يصير الربيع على الابواب. واعتادوا ان لا يأكلوا « اليقسما » ، وهو مزيج الدبس والثلج ، الا بعد الجمرة الثالثة حيث لا يبقى خوف من التضرر بالبرد ويقولون في ذلك :« اليقسما في اول جمرة سم ، وفي ثاني جمرة دم ، وفي ثالث جمرة كل واصطم .» اي كل واسكت.

ويقول الزراع منهم ومن يهمهم مراقبة الجوّ ان الايام الثلاثة التي تقع فيها الجمار الثلاث تكون متشابهة طقساً ، فاذا كان الجو صاحياً دافئاً جميلاً او ممطراً بارداً مكفهراً او غير ذلك يوم وقوع الجمرة الاولى في ٧ منه ، انتظروا ان يكون كذلك في اليومين اللذين تسقط فيهما الجمرتان التاليتان في ١٤ و ٢١ منه.

ويسمون عصارة الاشجار « الماوية » ، من الماء ، ويقولون في ذلك :« بعد تكامل الجمار تدبّ الماويّة في العروق . ويزهر اللوز والبرقوق. » وهذا يصح على الساحل لا على الجبل.

وفي شباط تلد المعزى صغارها . فاذا تأخرت الى اذار كان ما تلده ضعيفاً مهزولاً . ويقولون في ذلك :« لا تربي الا جدي شباط ». ويتشاءمون من السنة الكبيسة التي يكون شباط فيها ٢٩ يوماً ، ويزعمون انها تميت الماشية ، ولاسيما المعاشير والمواليد ، ومن مقولهم في ذلك :« في سنة الكبيس ، خليك على طروشك حريص .»

صوفية ابن العربي

بقلم الاب فليكس تريبيرا الاسباني

ظهر في مدريد ، السنة الفائتة ، كتاب مهمّ عن محيي الدين ابن العربي ، كبير صوفيي الاندلس ومن اكابر صوفيي العالم الاسلامي على الاطلاق . واذا قلنا ان مؤلف الكتاب هو ميگال أسين بلاسيوس[1] المستشرق الاسباني الشهير ، المعروف بابحاثه في هذا الموضوع ، نكون قد حددنا نوعاً ما قيمة هذا الكتاب واشرنا الى المركز الذي يحلّه في ابحاث المستشرقين عن صوفية الاسلام.

اما غاية المؤلف الظاهرة في عنوان الكتاب فان يدرس مظاهر الصوفية من خلال آثار ابن العربي، فيشير فيها الى تأثير النصرانية في هذه الحركة الروحانية. وهو يتتبع حياة ابن العربي المنقضية بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، في بلاد الاسلام المختلفة كالاندلس وافريقية والمشرق . ويدرس عقيدته الزهدية الصوفية ، محلّلًا عناصرها الخاصة ، تلك العناصر التي تجعل منها مثالًا نوعياً تتمثّل فيه الروحانية الاسلامية بكامل مظاهرها النظرية والعملية المشتركة بين جميع الامكنة والازمنة. فيمكن اذًا ان يطّلع الباحث في روحانية ابن العربي على تلك الطرق المتنوّعة والآراء والعقائد الخاصة التي تميز الروحانية الاسلامية على الجملة، فيدرس ما فيها من صلات بالنصرانية ، وما في مظاهرها من شبه بمظاهر

1) **Miguel Asin Palacios**, El Islam cristianizado, *Estudio del « Sufismo » a través de las Obras de Abenarabi de Murcia. gr. in-8° de 543 pp. Editorial Plutarco* (*S. A.*) *Madrid*, 1931

الروحانية المسيحية . وان هذه المقابلة الدقيقة بين الروحانيتين التي قام بها المؤلف في كتابه الكبير تدفعنا الى ان نحلّ بالايجاب المشكل الادبي الذي يعرض للمطالع وهو : هل من وجود للروحانية في الدين الاسلامي ؟ وهل لهذه الروحانية ميزات خاصة تشابه ميزات الروحانية المسيحية ؟

يبدأ الكتاب بمقدمة قيمة تظهر لنا موقف المؤلف من المشاكل الثلاثة المهمة التي تعترض كلّ باحث في الصوفية الاسلامية : وهي مشكل تاريخي ، ومشكل نفسي ، ومشكل لاهوتي .

اما المشكل التاريخي فيحله الكاتب على طريقة الانتخاب الفلسفي متناولاً افضل ما في النظريات المختلفة ؛ قائلاً ان الاسلام ، في انتشاره ، تناول كلّ ما كان يظهر له من ثقافة روحية في الشعوب المغلوبة . ثم تمثّل كل ذلك ، وظهر بروحانية تستند اولاً واساساً الى الافكار الزهدية - الروحية المسيحية المتفرّعة عن آثار آباء الكنيسة الاقدمين ، وعن زهديات الرهبان والنساك . الا ان هذا الاصل المسيحي كان يشوبه احياناً بعض افكار اجنبية اثرت فيه بطريق المجاورة والعدوى ، فتناولها الاسلام بدوره دون تمحيص ولا انتباه لاصلها . وهكذا اتصفت صوفيته ، فوق اتصافها بروحانية النصارى ، ببعض مظاهر تستند فيها الى الافلاطونية المستحدثة الاسكندرية والى نظريات الاغنوستيين وما فيها من مزيج مضطرب ، والى المزدكية الفارسية ، بل الى البوذية الهندية ايضاً .

واما المشكل النفسي فيحله المؤلف جازماً بوجود شبه بين عناصر الزهد الصوفي الاسلامي والروحانية المسيحية ، شبه يتجاوز الكلام والصورة الى جوهر الحياة والعقيدة الروحية . وهو يصل الى هذه النتيجة بعد درس طويل يتفهّم فيه من جهة كتابات الصوفيين ، فارضاً طبعاً صحّة كلامهم واخلاصهم ، قائلاً انه « لا يجوز لرجل عاقل عادل ان ينفي هذا الاخلاص في جميع الحالات . » ويتتبع فيه من جهة اخرى حياتهم فارضاً ايضاً « ان تلك الكمية الضخمة من الامثلة تتطلب من المؤرخ المتجرّد ان يقرّ بانها ليست كلّها فاسدة او مغلوطة . » وانه « اذا درسنا هذا العدد الكبير من الكرامات » لا بدّ ان نعتبر بعضاً منها ، بل كثيراً منها ، على نصيب من الصحة التاريخية . »

واما المشكل الثالث وهو المشكل اللاهوتي فيحله المؤلف فارضاً من الممكن ان الله يمنح غير المؤمنين النعمة المبرّرة ، وبالتالي موهبة الكرامات والمعجزات. ولا يسهو باله عن الفكرة المسيحية الجوهرية التي يراها أُساً للحركة الزهدية الصوفية في الاسلام. ثم يختم بقوله « ان هذه الفرضية تكون برهاناً جلياً على قوّة النفوذ الفائق الطبيعة المتصفة بها النصرانية ، تلك القوة التي امكنها ان تتسلّل ، على طريقة عجائبية ، من خلال مسامّ جسم الكنيسة فتنير ببهاء الوحي الالهي ديانةً كالاسلام تظهر لاول وهلة بعيدة كل البعد عن الايمان المسيحي ، ولكنها تحتوي على الشروط اللازمة ، وان ضئيلة ، للخلاص. »

وبعد هذه المقدّمة الضرورية لفهم موقف المؤلف في كتابه الكبير ، ينتقل المطالع الى جسم الكتاب، وهو مقسوم الى ثلاثة اقسام: حياة ابن العربي، وتحليل عقيدته الزهدية - الصوفية ، ومنتخبات من اهمّ آثاره.

يترجم الكاتب لابن العربي على طريقة مطوّلة ، فيذكر معلومات كثيرة مفيدة دوّنها الصوفي عن نفسه ، واودعها مؤلفاته ولاسيما كتاب « الفتوحات ». فيستخرجها ويرتّبها مشيراً الى مصادره بكل دقة ، زائداً معلومات مقتضبة عمّن ترجم للصوفي من الكتّاب.

ولا نغالي اذا قلنا ان نواة الكتاب المهمة في القسم الثاني المختصّ بصوفية ابن العربي . حيث اظهر المؤلف مقدرته على تحليل طرائق صوفيي الاندلس من المسلمين وعلى تصنيف هذه الآراء المتشعّبة المتباينة ، المتضاربة فرتّبها من جهة ، وقابل بينها وبين ما يشابهها من طرائق الروحانية المسيحية من جهة اخرى، ولاسيما روحانية النساك الاقدمين ، وكبار روحانيي الاسبان في القرن السادس عشر.

اما الموادّ التي استعملها في تحليل صوفية ابن العربي فقد استخرجها خاصة من تآليف الصوفي القصيرة حيث نرى مذهبه في الزهد والتصوف اجمع واظهر منه في كتابه الكبير المعروف « بالفتوحات ». وهذه اسماء التآليف التي درسها :

١ - كتاب تحفة السفرة الى حضرة البررة - طبعة القسطنطينية سنة ١٣٠٠ هـ.

٢ - رسالة الامر المحكم المربوط فيما يلزم اهل طريق الله من الشروط ، طبعة القسطنطينية سنة ١٣١٥ هـ.

٣ – كتاب التدبيرات الالهية – طبعة نيبرغ Nyberg ، ليدن سنة ١٩١٩ م.
٤ – رسالة في كنه ما لا بدّ للمريد منه – طبعة القاهرة سنة ١٣٢٨ هـ.
٥ – كتاب مواقع النجوم ومطالع أهلّة الاسرار والعلوم – طبعة القاهرة سنة ١٣٢٥هـ.
٦ – رسالة الانوار فيما يمنح صاحب الخلوة من الاسرار – طبعة القاهرة سنة ١٣٣٢ هـ.

يحلّل الاستاذ اسين نظرية ابن العربي المستخرجة من هذه المؤلفات خصوصاً، فيعرضها في اثني عشر فصلاً بكل ما تمتاز به من عقيدة اساسية في الزهد والتصوّف، ومن اعمال مهمة يقوم بها الصوفي في محطّاته المختلفة. ثم يقابل بينها وبين ما تفرضه الروحانية المسيحية من تعاليم واعمال، وخصوصاً تلك الروحانية السابقة عصر الاسلام. على ان اهم الفصول، في نظرنا، الفصل السابع المختص بالموسيقى والغناء الديني، وكذلك الفصل التاسع الذي يدرس حالات الصوفية ومقاماتها وما يأتيه اربابها من كرامات.

هذا وتجب الاشارة الى ان المؤلف يعتقد انه يعمل على لفت انظار الناس الى ابن العربي خاصة والى الصوفية الاسلامية عامة، فيرفعها في تقدير الباحثين، بزعمه ان كلّ ما فيهما من قيمة يأتي من العنصر المسيحي الكائن في اساس تلك الصوفية. قلنا: ومهما يكن من صحة هذه النظرية ومن تعرّضها للمناقشة اذا ما عُرضت على هذا المظهر من القطع والجزم، فاننا نأمل ان العالم الاسلامي يعرف للمؤلف جهوده القيّمة.

ولا بدّ من القول ان الاستاذ اسين لا يخفي ما في شخصية ابن العربي من عامل مَرَضي، وان كان لا يدقّق كثيراً في ذكره. ثم انه لا يخفي كذلك ما في نظريته الصوفية من ميل لا يمكن السكوت عنه الى الحلول والتحوّل بالاتحاد.

بقي ان نذكر القسم الثالث وفيه يجمع الكاتب طائفة صالحة من اقوال ابن العربي المهمّة، يترجمها الى اللغة الاسبانية بما عُهد فيه من مقدرة عرفها له الاستشراق العالمي من امدٍ بعيد.

ونحن اليوم أبعد من ان نحلّ جميع المشاكل التي يخوض فيها هذا الكتاب القيّم. على ان ما نقوله بحقّ هو ان كتاب الاستاذ اسين جدير بان يحلّ مركزاً عالياً في فرعه، فهو حجر مهمّ في بناء تاريخ الصوفية الاسلامية.

حول «الشعر والشعراء»

بقلم فؤاد افرام البستاني
استاذ الآداب العربية في كلية القديس يوسف

٢

شعراء الوطن

معروف الرصافي – بشاره الخوري – وديع عقل – شبلي الملاط – الشيخ ابراهيم منذر

لا يذكر الناقد من شعراء الوطن اللبناني الا بشاره الخوري، ووديع عقل، وشبلي الملاط، والشيخ ابراهيم منذر؛ وهم اشهر من كانت الاوساط الادبية اللبنانية تتداول اسماءهم قبيل الحرب وبعيدها. يدلّ بذلك انه تابع، في بلاد هجرته، الاطلاع على آثار من عرفهم في طليعة شعراء لبنان، عهدَ كان لا يزال في الوطن يقابل ويفاضل بين سبك فلان وصناعة فلان ... في تلك البيئة الادبية الانتقالية التي حاولنا تحديدها في القسم الاول من المقال[1]. وعليه فهو لا يذكر شيئاً، ولم يكن من المنتظر ان يذكر شيئاً، عن شعرائنا الشبان من الذين نبغوا بعد الحرب، وتناقلت الجرائد اسماءهم حتى الى عزلة الاديب. ألم يطّلع على آثارهم اطّلاعاً كافياً؟ أم انه يرى هذه الآثار لا تستحقّ درساً ادبياً؟ ام انه يتمهّل في الحكم ريثما تضمحلّ العوامل الظرفية ويرى ما يكون من ثبات هذه الآثار على كرور الايام؟ ام انه يهمل امر هؤلاء الشبان اذ لا يرى منهم من يجرؤ على منازعة شوقي «الإمارة»؟ ومهما يكن من امر فان صفة الناقد

١) راجع «مشرق» هذه السنة، ص ٥٥–٥٦

الانتقالية فرضت عليه، دون ان يحلّل اسباب هذا الفرض، ان يختار اولئك الاربعة امثلة لشعراء الوطن.

وقد رأينا ان نقدّم على آرائه فيهم رأيه في شاعر عربي آخر، وان لم يكن من لبنان، فلا بأس بعده من شعراء الوطن، وهو معروف الرصافي، «اشعر شعراء سورية والعراق» في نظر الناقد، بل «ربما قصر عنه شعراء لبنان باستثناء «الاخطل الصغير» في طريقته ورقة عاطفته، لكن ليس له بلاغة الرصافي وحكمته ومتانة سبكه وجزالته.»[1]

نقول: هذا حكم غريب. وقد توقع الاديب ذلك من المطالع السائر على الاحكام التقليدية، بل توقع ان يحدث هذا الرأي «ضجة بين الذين يأخذون بالمتداول دون ان يكون لهم رأي مستقل مبني على البحث والتدقيق.»[1] واذاً فان من يستغرب هذا الحكم يكون لا رأي له مستقل مبني على البحث والتدقيق.

ويطالب الاديب للرصافي بلقب «شاعر العراق» لانه اولى به من الزهاوي. وما الزهاوي في شعره الا «كالاستاذ امين الريحاني في كثير من الاحيان في نثره: فلسفة لا طائل تحتها وركاكة لا مثيل لها.»[2]

وهو يستشهد على شاعرية الرصافي برأي الشيخ عبد الله البستاني، وقد سأله عنه في السنة ١٩٠٩، فقال:

«بالرغم من نه في عنوان امره فهو من اهم شعراء الطبقة الاولى وسيكون في مقدمتهم يوماً.» (اه.).

وكلنا يعلم ان الشيخ عبد الله البستاني من كبار اللغويين، وانه ينظر الى الشعر من هذه الناحية قبل كل شيء.

ثم يستشهد الاديب بقصيدة الرصافي في «التومبيل». والله يعلم، وارباب الذوق يعلمون ايضاً، قيمة العاطفة الشعرية في قصيدة «التومبيل»! وهناك عدة ابيات يوردها الاديب مثالاً على جزالة الرصافي وحكمته وليس فيها الا حقائق بديهية

١) الشعر والشعراء، ص ١١٦

٢) الكتاب: ص ١١٧

وحكم سائرة لا يخفى ابتذالها على الناقد نفسه، فيجتهد في ستره بقوله: «وانك سترى في هذه الابيات من جودة السبك والجزالة ومتانة القافية ما يشفع ببعض الابتذال في الحكمة...»[١] ويتكلم في مكان آخر عن «الاحتذاء المستحسن» الذي يأخذ به الرصافي. ويعتذر عن انه لم يشر الى سقطات شاعره لانه لم يتوفق الى الحصول على الديوان بكامله[٢]. على انه لو توفق الى الحصول على ذاك الديوان الضخم لما امكنه الاشارة الى كثير من السقطات النظمية التي يفتش عنها في آثار الشعراء المنقودين احياناً كانواع السنادات، واشباع الحركة، واضطراب بعض القوافي؛ بل لامكنه ان يعمّ على الديوان بكامله الحكم «بالاحتذاء المستحسن» و«بجودة السبك والجزالة ومتانة القافية التي تشفع بالابتذال...»

وكل هذا لا يؤهل صاحبه الى تلك المنزلة التي حلّها الرصافي في نظر الاديب، الّا اذا قسنا الشعر بقياسه، فاعتبرنا صاحبه في تلك المرتبة، «لان ليس بين الشعراء من توفق الفاظه وتعابيره بين سائر العصور كالرصافي. اذا قرأته لا تعلم اذا كنت تقرأ احد المخضرمين او المولّدين او العصريين.»[٣] وهو قياس مادّي يظهر مفعوله خصوصاً في ختام درس الاديب للرصافي اذ يقول:

«ومجمل القول ان الرصافي شاعر من الطبقة الاولى لا ينقصه في شعره سوى العاطفة. — جيد الديباجة بليغ التعبير سهل التركيب لا يجيء في شعره بالجمل الاعتراضية ولا يعطف آخر كلمة في البيت على اول كلمة ولا يعلق معنى القافية بالبيت التالي — ومن حيث المعاني فبقدر ما يسمح له وسطه. ومن الحيف ان نطلب من ابن العراق ما نطلبه من ابن مصر.»[٤]

ونحن اذا نظرنا الى هذا من عناصر الشعر فحسب، كنا والاديب الناقد على وفاق تام في ما خصّ الرصافي.

***

على ان هو نفسه لم يكتفِ بهذه العناصر في الحكم على قيمة الشعر، اذ

١) الكتاب: ص ١١٩
٢) الكتاب: ص ١٢٢
٣) الكتاب: ص ١١٦
٤) الكتاب: ص ١٢٢

عرض لشاعرية بشاره الخوري ، فحلّل ما فيها من عاطفة قويّة ، وتصوّر لطيف ، وتمثيل جميل قائلاً :

« اذا كانت الخمرة تصعد الى الرأس فشعر صاحبنا « الاخطل الصغير » يخيم بين الخاطر والقلب ، ويشدّ اطنابه الى العواطف والحواس كافة . ولا ترى عليه للتقليد من مسحة فهو «ماركة مسجلة » لا تُقلِّد ولا تتقلَّد . »(١

ثم اختار بعض ابيات من قصائد بشاره الخوري العاطفية « كآسي الحرب » و«مرثاة سعد زغلول » . وهو لو عرف مراثي الشاعر الاخيرة لاختار منها ابياتاً وابياتاً .

***

ومن « شعراء الطبقة الاولى » الذين قرنهم بالرصافي من حيث « فصاحة اللفظ وبلاغة التعبير » وديع عقل . الّا ان نصيبه من المعاني اوفر قليلاً من نصيب الرصافي . وهو ما انتبه له الاديب فقال :« هو في شعره بدوي المبنى حضري المعنى . » مؤيّداً كلامه بعدة ابيات من قصيدة الشاعر في يوبيل الشيخ عبد الله البستاني . وقد بلغ من تأثير بلاغتها في الناقد ان صاح :

« لو كلفت تشكيل اركان دولة البلاغة لقسمتها الى كتلتين : يمين ، ويسار . الاولى تمثل الشعر ، والثانية النثر . واقف من عن يمين صاحب العرش – الشيخ عبدالله – هذا الشاعر البليغ . ولو انصف ادباء الارز لما حمل لواء الشعر في هضابه سوى اثنين : بشاره الخوري ، ووديع عقل – الاول برقته وسعة خياله ، والثاني بلاغته وابتعاده عن التقليد والابتذال . »(٢

ننقل هذا تاركين الحكم فيه لمن سيكون من رعايا هذه الدولة !

الا ان الناقد ينعي على وديع عقل « كثرة تشاؤمه وامعانه في الشكوى والتنديد بالحكومة الوطنية والانتداب معاً »[٣] . ولعلّه يغيّر حكمه اليوم !

وهو يرى ان لبنان اخطأ في ارساله الى مصر غير وديع عقل لتمثيله في مهرجان شوقي ، فيقول :

« ولو انتدب ادباء لبنان هذا الشاعر لمهرجان شوقي لتجلى للمصريين الادب اللبناني الحقيقي باجمل مجاليه ولكانوا اعترفوا لنا بامارة البلاغة كما اعترفنا لهم بامارة الشعر . –

١) الكتاب : ص ٦٣

٢) الكتاب : ص ١٠٩ – ١١٠

٣) الكتاب : ص ١١١

وقد سمت النفوس ذكر مراتع الاحباب ، ومرابع الاتراب ، والطعن ، والضرب ، وامتزاج الدماء بالدماء ، والمسيح ومحمد ، والانجيل والقرآن ، والاتراك والاروام ، والموقف موقف ادبي محض وبلاغة وبيان . »(١

***

ولا يحتاج المطالع الى كثير من الاطلاع ودقة النظر كي يشعر ان المقصود بكل هذه التلميحات شبلي الملّاط ، مندوب لبنان الى مهرجان شوقي. وكذلك لا يحتاج الى كثير من دقة النظر كي يشعر ان الناقد يختلف والملّاط على امور مهمة منها ما يمسّ الشاعرية المحضة ، ومنها ما يمسّ الحياة الاجتماعية بما تجرّه من صلات ومعاملات . وكان الشاعر قد اساء في ما مضى الى الناقد . فتردّد هذا في الكتابة عنه حائرًا امام عاملين : « حبّ التقيّد بالنظر بالعين المجرّدة في اقوال كل من الشعراء ، وعاطفة مقابلة الاساءة بمثلها ، والانانية عريقة في الآدميين . »[٢] الّا انه استأنف العمل تبعاً لنصيحة صاحب الهدى . واراد ان ينصف الشاعر الملّاط « لعلّه يعلّمه انصاف الناس . »[٣] فلم تمنعه ذكرى تلك الاساءة من ان يخصص له وحده ٢٦ صفحة ، بعد ان خصّ بكل من الرصافي ووديع عقل ٧ صفحات ، وبكل من بشاره الخوري والشيخ ابراهيم منذر ٣ صفحات فقط . تتبع الملّاط في جميع حالاته ودرس اكثر مظاهر شعره ، بل اكثر مظاهر اخلاقه ، مشيرًا الى المناقضات الكثيرة والتقلبات الاهوائية ، والاغلاط التركيبية، والمآخذ المتنوّعة ، اشارته الى كثير من المحاسن التي اتصف بها شعر الملّاط . وقد افرد قسماً وافرًا من نقده لتلك القصيدة البائية التي انشدها الشاعر في مهرجان شوقي ، ولمح اليها الناقد قبيل هذا الكلام ، وهو يعتبرها من النظم العادي المبتذل الجدير بان يُمرّ به « مرور عابر طريق » ، لولا ما فيها من الضرب على وتر النعرة الدينية الاسلامية الذي خرج فيه الشاعر عن عقليته ووطنيته ، ونقض به كثيرًا من اقواله السابقة ارضاء للسامعين واثارةً للعواطف عن طريق

١) الكتاب : ص١١٠
٢) الكتاب : ص ١٣٨
٣) الكتاب : ص ١٣٩

السياسة والنعرات[1] . . .

ويستند الناقد في احكامه كلها الى كثير من ابيات الملاط ينقلها ويحللها ويذكر ظروف نظمها . ويلخص حكمه على الشاعر بفصل قد يكون من المفيد نقله ، وان كان طويلاً . قال :

« ان شبلي الملاط شاعر فيّاض القريحة ، حسن التركيب ، سهل التعبير . وفي شعره هلهلة هي مزيته الاولى بحيث انك لو قرأت له كلاماً مقفّاة خالية من كل معنى لشعرت بروح الشاعر . لكن يتحتم عليك قراءة المنظومة بجملتها . فبالرغم من جودة السبك في فرادى الابيات ، لا تجد له ، لو تصفّحت ديوانه كلّه ، بيتاً واحداً بارزاً يشار اليه بالبنان . وهيامه بالشعر كهيامه بالوظائف . اذا جلست اليه تظن نفسك وحيداً لانه قلما يكون غير سابح بافكاره في الفضاء متنبّأ الشعر ومترنماً باقواله او اقوال الشعراء المحدثين كابن تمام وابي الطيب والبحتري وغيرهم . . . كثير التقليد في شعره ، كثير الابتذال ، وكثير الاغلاط . وهو اقدر الشعراء في الالقاء والايماء والضرب على وتر سامعيه الحساس ، يلبس لكل حالة لبوسها ، ولا ترى اسلس من عاطفته قياداً يسير بها الى حيث يشاء ويدفع به النغم . »[2]

***

بقي الاشارة الى حكم الناقد على الشيخ ابراهيم منذر « شاعراً » . وقد قيدنا اللفظة ، كما قيّدها الناقد لانه لا يعنيه في كتابه الا « الشعر والشعراء » . قال عن الشيخ المنذر ، منذ ثماني سنوات ، ما يلي :

« الشيخ ابرهيم منذر وطني غيور ، ولكن بشيء من التطرف في ظروف يجب معها على كل لبناني صميم سلوك سبل الاعتدال . وهو لغوي مدقّق مشهود له بطول الباع ، وان لم يدرك شأو البستاني واليازجي وغيرهما من ائمة اللغة . وكاتب مفكّر ، وربما كان ايضاً سياسياً محنكاً . ويمكن الشيخ المنذر ان يكون كل شيء الا شاعراً . »[3]

هذا ما كتبه سنة ١٩٢٤ . ثم تمرّ السنون ، وينظم المنذر كثيراً ، ويقرأ له الناقد ما ينظم ، ولكن رأيه لا يتغيّر فيه « من حيث الشاعرية . »[4]

وسنعرض ، في العدد القادم ، لآراء الناقد في شعراء المهجر .

---

١) الكتاب : ص ١٢٢ – ١٢٤
٢) الكتاب : ص ١٢٩–١٣٠
٣) الكتاب : ص ١٢٤
٤) الكتاب : ص ١٢٧

طاغية القرية

مأساة ذات فصلين

بقلم يوسف غصوب

الفصل الاول

المشهد الثاني

مريم . ليلى . ابو شهيد . ثم فارس

(عندما لا تكون المرأتان مشتركتين بالحديث يمكنهما الخروج من المسرح والعودة اليه والاهتمام بامور بيتية)

ابو شهيد ماذا ارى ؟ ما تصنعين يا ليلى ؟ من تكلمين ؟

ليلى هذا فقير يا ابي .

ابو شهيد ها ! ها ! ها ! توزعين الخبز الآن من النوافذ . . . انا أتعب واشقى واسهر الليل ، وانت توزعين الخبز بالارغفة !

ليلى فقير مسكين اعمى !

ابو شهيد فقير ! فقير ! الفقر اصبح صنعة رابحة . نحن نشتغل لنطعم الفقراء . ما يمنعه من العمل ؟ فقير ! لماذا لا يتعب ؟ لماذا لا يشتغل ؟ هذا كسلان يعيش على ظهر الناس .

ليلى ابي . . .

ابو شهيد تعلمين الناس الكسل بالاحسان اليهم . فالافضل ، يا بنت ، ان لا تعودي الى مثل هذا . واذا رأيتك بعد اليوم توزعين الخبز فلا ادري ما اصنع ! . . .

مريم ابنتك يا خليل !

ابو شهيد اغربي من وجهي انت وابنتك . سوف لا تتركان لي شيئاً . لا رعاكما الله وسوّد وجهيكما !

(مريم وليلى تترويان في عقر الدار وتأخذ الام في تطييب خاطر ابنتها)

ابوشهيد (بعد ان سكن غضبه قليلاً ينظر الى الباب وينادي فارساً الواقف خارج الباب)
يا فارس ، ادخل (يجلس ابو شهيد) اجلس هنا . . . ماذا تريد ؟
فارس يا سيدي ، نحن على ابواب القز ، والموسم هذه السنة مقبل . .
ابو شهيد لمَ هذه المقدّمات كلها . قلْ لي ماذا تريد ؟
فارس يلزمني يا سيدي شيء زهيد .
ابو شهيد كم ؟
فارس عشرون ليرة .
ابو شهيد بايّة كفالة ؟
فارس ايّة كفالة ! ليس لدي كفالة . هذا المبلغ اردّه لك بعد القطاف ، فان الموسم مقبل هذه السنة .
ابو شهيد من يضمن لي ان يكون الموسم مقبلاً الى النهاية ؟ واذا احترق خصّك ، او مرض الدود ، او نزل بك ايّة مصيبة كانت فمن يرد لي المال ؟ هل يذهب مالي ادراج الرياح !
فارس معاذ الله ! ابيع كل شيء وادفع لك .
ابو شهيد (بعد ان يفتكر قليلاً) طيّب ! طيّب ! ولكن قلْ لي . انك الى الآن لم تطلب مني شيئاً ، وكنت في الماضي ، اذا احتجت الى قليل من المال ، استقرضته من الغير . انت تعلم من اعني بهذا « الغير » .
فارس نعم ، انيس الرامي .
ابو شهيد انيس الرامي . هذا معبودكم في القرية . فلمَ لم تطلب منه ؟
فارس انيس الرامي رجل كريم غيور قد انقذني مراراً كثيرة من مصاعب جمة .
ابو شهيد لمَ لم تذهب اليه ؟
فارس انه في ضيق . . .
ابو شهيد في ضيق . . . ها ! ها (ترى علامات السرور على وجهه) اني رأيت الضيق يسعى اليه . يبذّر ماله ، يعطي شمالاً ويعطي يميناً ، ولا يحاسب .
فارس انه رجل كريم .

ابو شهيد (على حدة) قد جاء وقته : بيته جميل واراضيه خصبة (يخاطب فارساً)
هل هو حقيقة في ضيق ؟

فارس في ضيق شديد حتى أنه يريد بيع ارضه . انما يريد البيع نقداً .

ابو شهيد أح ! أح ! واين يجد المال نقداً في هـذه القرية ؟ . . . اتعرف كم هو طالب ؟

فارس لا أظن انه يطلب شيئاً كثيراً .

ابو شهيد قل ، يا فارس ، اصحيح انه يريد البيع ؟ هل انت متأكد ذلك ؟

فارس ذلك لا شكّ فيه ، فقد سمعته انا بأذني .

ابو شهيد واي مبلغ يطلب ؟ ألف ليرة ؟

فارس لا ادري . . . لا أظن انه يطلب اكثر من الف ليرة ، فهو في حاجة شديدة الى الدراهم .

ابو شهيد طيّب . . لنعد الآن الى ما كنا فيه . كم قلت لي انك تريد من المال .

فارس عشرين ليرة ، يا سيدي .

ابو شهيد طيّب ! أعطيك عشرين ليرة اذا رهنت لي البيت . ثم تدفع على هذا المبلغ عشرين بالمئة فائدة .

فارس هذا غبن ، يا سيدي .

ابو شهيد غبن او غير غبن . فاذا شئت فالمال جاهز ، والّا فمع السلامة .

فارس والدتي مريضة يا سيدي .

ابو شهيد شفاها الله ! هذا امر لا يعنيني (يهم بالدخول الى الغرفة)

فارس سيدي .

ابو شهيد اذهب الى الرامي فانه يرمي دراهمه . اما انا فلا .

فارس (يرفع صوته قليلاً) الرامي رجل شريف كريم فلا تشمت به .

ابو شهيد آه ! آه ! وتغضب ايضاً . . . تأتونا محتاجين وتغضبون (بتهكم) اذهب يا . . . يا ولدي ، اذهب بسلام . . . البلاد واسعة .

فارس البلاد واسعة ، ولكنك في هذه القرية الرجل الوحيد الذي في يده مال .

ابو شهيد اذا كان الامر كذلك فاحفظوا لي هذه المنة عليكم . أقرّوا بفضلي ،

لا تتعجرفوا . لا تتكبروا .

فارس عفوك ، سيدي ، فقد اخطأت . . . ان والدتي مريضة .

ابو شهيد طيّب ! طيّب ! ولكن لا تعد الى رفع صوتك مرة ثانية . فماذا تريد الآن ؟

فارس المال .

ابو شهيد هل قبلت بالشرط . تدفع بالمئة عشرين . ثم ترهن البيت .

فارس قبلت . . .

ابو شهيد طيّب ! طيّب ! . . (يكتب كمبيالة) وقّع هنا .

فارس والمال ؟

ابو شهيد وقّع اولاً .

فارس ولكن ، يا سيدي . المال . . .

ابو شهيد ما هذه المماطلة ؟ وقّع . والا فمع السلامة (فارس يوقع السند فيأخذه ابو شهيد ويدخل الغرفة ثم يرجع وبيده عشر ليرات يدفعها لفارس) خذ . . .

فارس هذه عشر ليرات فقط .

ابو شهيد طيّب !

فارس ولكن قد وقّعت لك سنداً بعشرين .

ابو شهيد ليس عندي غيرها الآن . ادفع لك الباقي عند عقد الرهن .

فارس انا في حاجة اليها اليوم .

ابو شهيد قلت لك ليس عندي غيرها . الم تسمع ؟ . .

فارس يا سيدي خذ هذا مالك وأرجع لي السند .

ابو شهيد ما عندك ثقة ؟ قلت لك ادفع لك الباقي عند عقد الرهن .

فارس ثقتي عظيمة . ولكن هذه الدراهم لا تكفيني . لا تسد حاجتي .

ابو شهيد خلّص ! . قد انتهى الامر . اذهب . لا تحوجني الى اخراجك بالقوة . مع السلامة . واذا شئت فهات المال واذهب .

فارس والسند الذي وقّعته ؟

ابو شهيد السند . تراه بعد سنة عند المطالبة بالمال .

فارس سيدي ، ما هذه القصة ؟ ما هذه الورطة التي ورطتني بها ؟ قالوا لي عنك كل هذا فلم اصدق ... بحياتك ، ردّ لي السند يا سيدي ... ارتمي على قدميك . ردّ لي السند . ردّ لي الورقة . انا لست بحاجة لشيء .

مريم ما هذا العمل ، يا خليل ؟ الا تخاف الله ! ألا تخاف الناس ! ما هذه القسوة ؟

ابو شهيد انتِ ايضاً . كم من مرة قلت لك لا تتدخلي في اموري !

فارس قالوا لي انك خدّاع فلم اصدق . فلا تغيّر بك ظني .

ابو شهيد انا لا يهمني ما تظن .

فارس ارجع لي السند .

ابو شهيد لا سند ولا مال .

فارس ارجوك ، يا سيدي ، استحلفك بكل عزيز لديك .

ابو شهيد قلت لك تتعب باطلاً .

فارس استحلفك بولدك المسافر ردّه الله !

ابو شهيد ليس لي ولد . اذهب من هنا . كفى ! كفى !

مريم لا تجدّف ، يا خليل ، خف الله ! ردّ له السند .

ابو شهيد اسكتي ، يا امرأة !

مريم لا اسكت . لا اخاف منك . الا تخشى غضب الله ، الا تخاف ان ينقلب علينا البيت ؟ !

ابو شهيد متى كنت ترفعين صوتك بحضرتي ! أنّى لك هذه الجرأة ؟ اذهبي من وجهي . قلت لك اذهبي ... وانت يا فارس قد كان ما كان ...

فارس يا لك من غليظ ! يا لك من قاس ! انا ذاهب .. لعنة الله عليك ...

مريم وليلى رحماكِ يا عذراء !

فارس ليكن هذا المال سماً في حلقك . ليت هذا المال يكون ناراً آكلة تلتهم احشاءك . جازاك الله عنا ! انتقم الله لنا منك ! لعنك الله ! لعنك الله ! (يخرج)

المشهد الثالث

مريم . ليلى . ابو شهيد

ابو شهيد آه ! آه ! ما ابرعهم باللعنات ! وافشلهم في جمع المال !

ليلى ربي ردّ عنا غضبك ! ايتها العذراء ، كوني لنا عوناً . اشفعي بنا .

ابو شهيد كفاك صلاة ، يا بنت ، وانت ، يا مريم ، كفي عن البكاء . فتاة حمقاء ، وعجوز خرفة ، اجرّهما ورائي . ثم صور على الجدار يحرق امامها الزيت والبخور . لا قيمة عندكما لشيء . تحرقان الزيت كأنما الزيت للحريق . لا ادري ما يمنعني عن نزع هذه الصور . قد اصبح بيتي كنيسة . . . اين الخوري ، يا مريم . . قد رأيته امس ماراً من امام البيت ألم يكن هنا ؟ ألم تعطه قداسات ؟ . . .

مريم يا خليل . . .

ابو شهيد بس ! الا تكفين عن النقيق . ما كنت احسب ان بيتي بركة للضفادع .

مريم يا خليل . اسمع قليلاً (ابو شهيد يتمشى من جانب الى جانب وهو يفكر والمرأة توجه اليه الكلام وتتبعه بنظرها وهو لا ينتبه لشيء بل يحسب هل لديه من المال ما يكفي لشراء اراضي الرامي) . ارفع هذه النشاوة عن نظرك ، ان نظرك هذا لمخيف . ان يدك هذه المرتجفة الاصابع انها ليد هائلة راعبة . انها يد سفاك دماء ، عاصر قلوب ، يد مفترس . الا تسمع اللعنات ، الا تسمع صوت الارامل ، صوت الايتام ؟ اليس في صدرك رحمة ؟ اليس في صدرك قلب ؟ الا تذكر ابنك . . .

ابو شهيد لا بدّ لي من الف ليرة لشراء اراضي الرامي . . .

مريم الا تشفق على فتاتك المسكينة ، على هذا القلب الطاهر ، على هذه الزنبقة التي تكاد الاشواك تخنقها ! ما ذنبها ؟ ما ذنبي انا ؟ ينفر منا الناس . نعيش منقطعين عن العالم الخوف واللعنة والحقد تحف بنا . . .

ابو شهيد ارض واسعة . فيها ماء ، واشجارها قائمة ، وتربتها جيدة ، اذا اشتريتها

اصبحت اكبر ملاك في لبنان . . . طالما ضحكتَ مني ، يا رامي ،
فآن ان تبكي . المال . المال . . . هو شيء عَجَب ، شيء عظيم ، عجيب
غريب . تضع المال في كفة ، وتضع جميع خيور العالم في كفة ، فترجح
كفة المال . . الناس جبناء . يرتعشون . يخافون شيئاً لا وجود له
يسمونه الضمير . من منكم رأى الضمير ؟ يخافون غضب الصور
والقديسين . يركعون امامهم يصلّون . واذا مرّ احدهم بالغني قبض
عنه يده خوف الاثم خوف الخطيئة . . . يخاف ان يقع في الخطيئة !
اه . . اه . . بُلهاء ! الافضل لهم ان يكونوا عبيداً تحت الوطء .
اما نحن فنحن الاسياد : قليل من البخل ، وقليل من الطمع ، ويرتجف
الناس منا ، ويخشون بطشنا ، ويجولون حول بيوتنا مستعطفين صاغرين .
يسألوننا ان نتوسل لهم في امورهم . ونحن نأخذ منهم اجرنا ونتوسل
لهم . لا نعطي شيئاً مجاناً . يخافنا الكبير والصغير لاننا اغنياء ،
واصحاب مطامع ، لان ليس لنا قلب . . . هل الذ من الغنى ! هل
اجمل من تلك الهالة الذهبية التي نتعمم بها والتي تبهر عيون الناظرين
الينا . يلومنا البلهاء لاننا بخلاء . ثم يخرّون على يدنا يقبلونها .

مريم اني اتوسل اليك ، ايتها العذراء ، ان تردي عنا غضب الله . انه مجنون قد اختلط عقله .

ابو شهيد الا تزالين هنا ايتها الضفدعة . . . ايتها المرأة النقّاقة البكّاءة . اهذا عرفانك للجميل ؟ اي شيء كنتِ ؟ نشلتك من الفقر المدقع ورفعتك الى مركز يحسدك عليه جميع الناس ، وانت لا تنفكين تنقين .

مريم ليتني بقيت كما كنت ولم ارَ ظلمك وقساوة قلبك .

(يقرع الباب قرعاً لطيفاً)

ابو شهيد من يقرع الباب في مثل هذه الساعة ؟ لعله احد الفقراء . قد اعتاد هؤلاء الكسالى المجيء الى هذا البيت يضحكون عليك وعلى ابنتك . . افتحي يا ليلى وان كان هذا الرجل من الفقراء فاغلقي بوجهه الباب . (يخرج)

(لها صلة)

شذرات

اكتشاف اثري قرب بعلبك قبل ١٣٢ سنة

وقفنا في تاريخ الامير حيدر الشهابي ، في اثناء اخبار السنة ١٢١٥ للهجرة (١٨٠٠ م) ، على نبذة لا علاقة لها بالتاريخ السياسي ، يذكر فيها الامير عثور بعض الناس قرب بعلبك ، على عدة نواويس من الحجر ومن الرصاص . ويشير الى محتوياتها بتدقيق عجيب . فرأينا نقلها افادةً للمشتغلين بالآثار ، ودلالةً على ما لهذا التاريخ اللبناني من قيمة فريدة ، لاني ما خصّ المعلومات السياسية فحسب ، بل في الكثير من المظاهر الاجتماعية والعمرانية ايضاً . وقد تركنا القطعة على علّاتها من الاغلاط مثالاً لانشاء المؤلف ، قال : (الصفحة ٦٠٠ من مخطوطة المكتبة الشرقية الحاوية الجزء الثاني من التاريخ المذكور) :

وفى هذه السنه (اي سنة ١٢١٥ = ١٨٠٠) كان مارًا اناس قرب مدينة بعلبك الى ناحية القبله فى الموضع المسما بعمود الذهب فنظروا جورة فى الارض وقد ظنوا انها محل زاعقه فتاملوها واذ داخلها اشارات فظنوا انه كنز . وكانوا ثمانية انفار فحفروا فى تلك المكان فوجدوا باب مغاره من حجر وعليه صخرة . فرفعوها ودخلوا الى تلك المغارة وهى نقر فى الحجر ووسعها نحو سبعة ادرع فنظروا بها نواويس امواتاً . فالميل الواحد ناووسين من حجر كبار طول الواحد اربعة ادرع ونصف . وعليهم اغطية من حجر كهيّة الجملون وعليه جنزيرين من حديد عظام مقفولين بقفولة مدورة ومصديين من طول المدة . فكسروهما ولم يقدروا على رفع الغطا عن تلك النواويس الى ان كسروهم بهدة من حديد فوجدوا داخل الناووس الاوّل مايتاً بالياً وصار تراباً وليس باقى منه الا العظام وعلى وجهه وجه دهب رقيقاً جداً . وفى يديه خاتمين دهب وحجر الواحد احمر . والحجر الثانى ازرق ومنقوشاً عليه صورة طير . ثم وجدوا فى الناووس الاخر مايتاً ايضاً بالياً كالاول وعلى وجهه غطا ذهب . وفى يده خاتماً واحداً ذهب وحجره اخضر . فاخذوا الجميع . ثم اتوا الى الجانب الثانى من تلك المغارة فنظروا ثلاثة نواويس من رصاص سمك الواحد ثلاثة اصابع باغطية ومكتوب

عليه كتابة وطول الواحد دراع وربع . فكسروهما ووجدوا بكل واحداً منهما مايتاً بالياً بالكلية وصار تراباً . ولم يجدوا عليهما شيء مثل تلك . وانما وجدوا بين تلك التراب الذى فى النواويس قطع ذهب صغار بقدر العدس . ووجدوا ايضاً فى جانب تلك المغارة ناووساً صغيراً جداً من رصاص وعليه كتابة مثل اوليك . فكسروه ولم يجدوا داخله الّا شي كالتراب . اخذوا تلك النواويس الرصاص ورجعوا الى مدينة بعلبك وقسموهم فيما بينهم . فبلغ الذهب واحد وعشرين مثقال وثلث . والرصاص قنطار واربعين رطل . فباعوا الرصاص الى المكارية الرطل بثلاثين فضة . فباعوهم المكارية الى اهالى بيروت الرطل بستين فضه الى السيد عبد القادر قرنفل . وباعهم المذكور الى مركب فرنج الرطل بخمس غروش . واما تلك الكتابة الدى على النواويس الرصاص لم احد عرف كتابتها لا من الافرنج ولا روم ولا يهود . واما حجار الخواتم حكموا الصياغ ان الازرق فيروز والاحمر عقيق . (اه)

المسيح ملك الامم والشعوب

احتفل في ٣٠ تشرين الاول الفائت ، في كنيسة كمپالا من مقاطعة النيل الاعلى ، احتفالًا باهرًا بعيد المسيح الملك صاحب العيد والمبنية على اسمه تلك الكنيسة . على ان اعجب ما كان في تلك الحفلة ان المشتركين فيها كانوا ينتسبون الى اكثر من عشر امم مختلفة فضلًا عن القبائل الافريقية المتعددة . فكان المحتفل سيادة المونسنيور كامپلنغ النائب الرسولي ، وهو اسكتلندي الاصل ، يعاونه كاهنان الاول منهما ارلندي ، والثاني انكليزي . ويحيط بهم عدد من الكهنة الهولنديين . وكان منظم الاحتفال نمساويًا ، وموقع الالحان من مقاطعة التيرول . اما المرتلون فكانوا ينتسبون الى عدة من القبائل الوطنية . وكان بين الحاضرين ، فضلًا عن الافريقيين ، كثير من الانكليز والفرنسويين والهولنديين ، والهنود المنتسبين الى مقاطعة غويا ، وسكان جزر سيشيل وجزر ماركيز وغير ذلك من ممثلي الشعوب المتنوعة ...

كيف امسى الموت اعمى !

قيل ان الله ارسل الموت يوماً ليأتيه بروح رجل فقير مريض رب عيلة ، فدخل البيت وحيًا أهله فاجابوه وقد ظنّوه متسوّلاً : ليعطِك الله ! وبادروا الى اكرامه ما استطاعوا . فقال الموت لامّ العيلة : دعي كلَّ اهتمام فلستُ بحاجة الّا الى روح زوجك . فان الله يستدعيها عن يدي !

سمعت المرأة وبنوها هذه الكلمات فطفرت على الاثر من اعينهم العبرات وقالوا : ومن يهتمُّ لنا بالمأكل والمشرب والكساء من بعده ، وكلّنا قاصرون ؟

فأثّرت بالموت هذه الشكوى فعاد ادراجه حتى وقف بين يدي الله . فسأله : اين روح الرجل الذي ارسلتك بطلبه ؟

قال : رأيتُ ايها السيد ان آتيك اولاً بروح الاولاد لانهم لا حيلة لهم بالمعاش من بعده ، فان مات ماتوا كلّهم على اثره .

قال الله : اذهب الى عمق البحر فتجد هناك حجرًا أتني به ، فعاد وقال : هوذا الحجر المطلوب قال الله : اكسره . فكسره قطعتين ، واذا في قلبه حشرةٌ صغيرة !

فمشت في نفس الموت قشعريرة وبُهت . فقال الله : من خلق هذا الحجر ؟

— انت !

— ومن وهب الحياة لهذه الحشرة وأقاتها في قلب هذا الحجر في عمق البحر ؟

— انت ، يا سيدي !

— ان كنتُ وهبتُ الحشرة الضعيفة في قلب الصخر ، في عمق البحر ، حياةً وقوتاً ، فهل تفوتني العناية بالبشر ؟

ثمَّ قال له : لتكن من الآن فصاعدًا أعمى ، صامتاً ، غير مرئيّ ، قاسي القلب . فلا تميز البشر كبارًا كانوا أم صغارًا ، شيوخاً ام شبّاناً ، اغنياء ام فقراء . ولا تتكلّم فلا يعرفك الناس ، ولا تأخذك شفقةٌ عليهم اذا ضرعوا اليك .

ثمَّ لطم الله الموت لطمةً تركته قاسي القلب ، خفيًا ، صامتاً ، اصمَّ ، اعمى ، يسعى على غير هداية ، فلا تصل منجله الى واحدٍ ويبقي عليه . ا . ش .

مطبوعات شرقية جديدة

Nilsson (Martin P.): The mycenaean origin of greek mythology. [*Sather classical Lectures, vol.8*] *Berkeley, University of California Press*, 1932, 260 *pp*. 8° *Prix* : 3 *doll*. 1/2

الاصول الميقينية للميثولوجيا اليونانية

- مؤلف الكتاب من اشهر اساتذة جامعة لُند ، ومن اوسع العلماء اطلاعاً في الزمن الحاضر على ما خصّ تاريخ الديانات في بلاد اليونان القديمة خاصة والعالم المتوسّط عامّةً . وقد القى سنة ١٩٢٩ ، في جامعة لندرة ، سلسلة محاضرات عن هوميروس وميقينية . ثم قام في السنة الدراسية ١٩٣٠—١٩٣١ بالقاء سلسلة اخرى من المحاضرات في اميركة ، وهي التي جمعها في المجلد الحاضر مطبوعة سنة ١٩٣٢ . اما نظريته فيها فملخصها انه يجب التميز بين الدين وما يجرّه من عبادة الخ . . . وبين الميثولوجية . وانـه ، في بلاد اليونان ، لا تنتج الميثولوجية مباشرةً من العصر المينوي (او الاقريطشي) بل من العصر الميقيني ، وهو متأخر عن ذاك ، منتسب ، من الوجهة التاريخية ، الى المجموع العنصري البارز في العصر اليوناني الصرف . وهو ما يفيد القول ان دولة اليونان الميقينية اسسها يونان اقحاح لا اجانب . وعليه فان الميثولوجية اليونانية ميقينية الاصل . ثم ان هناك فرقاً بين الآلهـة والابطال . والواقع ان الابطال اليونان هم ابطال ميقينيون ، وهذه هي النقطة الخاصة بالمجلـد . ويعرض المؤلف ، في ذلـك ، لاهم حلقات الميثولوجية البطلية ، فلا يتراجع عن ايجاد اساس تاريخي لولادة بعض الآلهـة اليونانية الظاهرة في العصور المتأخرة . وان حادث هِركليس لمن اوضح الامثلة على هذا الامر (ملخصه في الصفحة ٢١٩) . هذا وان من الصعب على المطالع ان يقرأ الكتاب الا بجهد متواصل . مما يدفعنا الى العجب من وجود محفـل اميركي ، حتى من المثقفين ، امكنه ان ينتبه لهـذه المحاضرات الظاهرة بمظهر دقيق من الرزانة والنقد الجدّي.

س.ر.

Kortleitner (Fr.-X) : Religio Jahvae cohaereatne cum simplicitate vitae nomadum. [*Commentationes biblicae, VII*] *Œniponte. Fel. Rauch.* 1933, 69 *pp.* 8°.

هل تقابل ديانة يهوه بساطة الحياة البدوية ؟

يقدم المؤلف العالم العامل ، في هذا الكراس ، درساً تاريخياً كتابياً جزيل النفع لرجال الكنيسة وطلاب العلوم الاكليريكية . وموضوعه نقد تلك النظرية التي تستند الى اصل الشعب الاسرائيلي منذ ابراهيم حتى دخول ارض الميعاد ، فتجعل من ديانة يهوه ديانةً بدوية ، وبالتالي تزعم ان اله هذه الديانة لا يفرق في شيء عن آلهة الديانات الوثنية المعاصرة ، وانه لم يبلغ الى ما نعرفه من السموّ والوضوح الا منذ عصر موسى ، بل منذ عصر داود .

هذا ملخص النظرية ، لا يتكلف المؤلف مشقة كبيرة في تزييفها والبرهان على النظرية المعاكسة داخلاً في الموضوع حتى دقائقه ، جامعاً في اتجاهه ، موجزاً في اساليبه . وهو يفيد طلاب العلوم الاكليريكية بان يطلعهم على هذه المشاكل التي كثيراً ما يثيرها منكرو الوحي ، وبعض البروتستانت ، وغير الكاثوليك ، ويعرّفهم الى المؤلفات التي عرض فيها زعماء هذا المذهب آراءهم ومزاعمهم ، فينال بذلك شكراً جزيلاً وتهنئة واجبة له ولمن يستفيد من عمله العلمي النفيس .

س . ر .

Tor Andrae : Mohammed, sein Leben und sein Glaube. *in*-8°, 160 *pp. M.* 7. *Gœttingen, Vandenhoeck u. Ruprecht,* 1932.

محمد : حياته وايمانه

هي ترجمة حياة جديدة للنبي العربي . على انها اقرب الى الدرس النفسي منها الى سرد حوادث الحياة . فلا يأخذ المؤلف بهذه الحوادث الا ليقيم منها إطاراً لدرسه اخلاق محمد . حتى انه يذكر معركة بدر وفتح مكة بالاستناد الى الاخبار التقليدية وحدها دون اهتمام بنقدها ومناقشتها . ويظهر الكتاب اجمالاً بمظهر عمل دفاعي عن محمد . ولكنه قلما ينجح . واننا ننبّه المسلمين الى ان في هذا الدفاع كثيراً من الامور التي لا يقرّونها ولا تلذّ لهم . من ذلك رأي المؤلف في ما خصّ نساء النبي العديدات . ولا يخفى ان النبي كان قد سمح لنفسه التمتع باكثر من اربع نساء ، وهو العدد المسموح به لاتباع

دينه . ولا يخفى ايضاً ان هذه الشاذة يعتبرها المسلمون من «خصائص النبوة».
اما مؤلف الكتاب فيستنتج من السورة ٣٣ : الآية ٥٢ ان معاصري النبي ورجاله كانوا يرون انه لم يستفد الفائدة الكافية من هذه « الخاصة النبوية » .
وهو ما نذكره تاركين تبعته على المؤلف المذكور. ه ل.

O. Halecki : Un empereur de Byzance à Rome. [*Travaux historiques de la Société des Sciences et des Lettres de Varsovie, t. VIII*] *in*-8°, 416 *p.* 1930.

امبراطور بيزنطي في رومة

في السنة ١٣٦٩ وصل الى رومة الامبراطور يوحنا الخامس باليولوغ ، الذي كان على عرش بيزنطية منذ السنة ١٣٥٤ ، وذلك بمناسبة اهتدائه الى الكثلكة ورغبةً منه في الاحتفال بدخوله في الكنيسة الرومانية . يذكر التاريخ هذا الحادث دون ان يتعمق في تبيان اسبابه ونتائجه . وهو ما حدا بالمؤلف الى هذا الدرس الدقيق الموفَّق الذي اظهره في نشرة پولونية وباللغة الفرنسوية ، لا تقديرًا للعلماء الفرنسويين الذين استفاد من ابحاثهم فحسب بل لانه كان من الضروري ان بحثاً كهذا يهمّ الكثيرين من ارباب الاختصاص في البلاد المختلفة يُنشر بلغة تسهّل الاستفادة منه على هؤلاء الاختصاصيين.

كانت حنة ، ام يوحنا الخامس ، اميرة من اسرة ساڤوى ، فنشأ ولدها في محيط مشبع بالروح اللاتينية صرفه نوعاً عن التحمس للمشاحنات الكنسية التي كان يغوص فيها الكثير من رعاياه . وقد يكون هذا الامر مهّد السبيل الى اهتدائه اهتداء شخصياً للكثلكة اللاتينية . ويلاحظ المؤلف ان هذه الحركة تختلف كثيرًا عن محاولات الاتحاد في ليون وفلورنسة ، وذلك في ما خصّ الامبراطور ورعاياه من جهة ، وفي ما خصّ احكام البابا وبلاطه من جهة اخرى. على انه لم يكن في عصر من العصور ما كان بين رومة وبيزنطية اذ ذاك من الاخلاص المشترك والتساهل المتبادل. وهو يرى ان اتفاق سنة ١٣٦٩ ، الذي كان اهمّ من سابقه في السنة ١٢٧٤ ، قد مهّد السبيل الى اتفاق سنة ١٤٣٩.

وفي آخر الكتاب ملحق نشر فيه المؤلف ٢٨ وثيقة ، وجدولًا بمآخذه ، وبعض الزيادات ، مع فهرس مفيد. ج . ل .

G. Mollat : La Question romaine de Pie VI à Pie XI. [*Bibliothèque de l'enseignement de l'histoire ecclésiastique.*] *in*-12 *de* 469 *pp. et* 1 *carte hors texte.* 1932. *Prix* : 24 *f*^s^. *Paris J. Gabalda et C*^ie^.

المشكلة الرومانية من بيوس السادس الى بيوس الحادي عشر

لقد حُلّت المشكلة الرومانية بمعاهدة لاتران سنة ١٩٢٩ . فاصبح من الممكن تأليف تاريخ لها . وهو ما قام به المؤلف ناشرًا ذلك في « مكتبة تعلم التاريخ الكنسي » المعروفة بفوائدها الجمة لاساتذة ذاك التعلم العالي وطلّابه. وكان المؤلف قد عُرف ايضاً بمقدرته في الموضوع اذ نشر، في المجموعة نفسها، درسه القيم على « بابوات افينيون » . اما في الموضوع الحاضر فاورد المعلومات الدقيقة عن المشكلة الرومانية مردفاً اياها بسلسلة مآخذ مهمة تأتي بالفائدة الجزيلة لكل من شاء درس ذاك الموضوع . وهو يبدأه بذكر اول اعتداء على الاراضي البابوية، اي ما قامت به الثورة الفرنسوية على عهد بيوس السادس . ثم يتتبع هذه الاعتداءات حتى عهد بيوس التاسع، يشرح ذلك في ستة فصول من كتابه. ويلحقها بفصل اخير في ذكر الحالة غير الطبيعية الناشئة عمّا تقدّم، مع الاشارة الى محاولات الاتفاق التي اوصلت نهائياً الى معاهدة لاتران . وللكتاب اربعة ملحقات نشرت فيها نصوص مهمة هي : هدنة بولونية سنة ١٧٩٥، ومعاهدة تولنتينو سنة ١٧٩٧، وشريعة الضمانات سنة ١٨٧١، ومعاهدات لاتران سنة ١٩٢٩ ج.ل.

S. Salaville : Liturgies Orientales. Notions générales. Eléments principaux. [*Biblioth. cath. des Sciences religieuses*] 1932. *Paris, Bloud et Gay.*

الطقوس الشرقية : معلومات عامة عنها مع ذكر عناصرها المهمّة

ان عنوان هذا الكتاب يشرح بكامله كل ما يحتوي عليه وما يرمي اليه من افادة المطالع، ولاسيما الغربي، الذي لا يفتر عن السؤال : لماذا كل هذا التعدّد في الطقوس وفي اللغات الطقسية ؟ على ان التاريخ يجيبه فيبيّن له اسبابه الكثيرة ويشرح كيف تنوّعت الطقوس، وتطوّرت كل من جهته، ثم كيف جدت بعض الجمود كل في منطقته الخاصة . والكتاب مفيد، على قسط وافر

من الدقة والصحة على كونه مكتوباً للجمهور . ولا نشكّ في انه يعمل على مزيد التفاهم بين الشرقيين والغربيين خصوصاً اذا ما ظهر جزؤه الثاني الذي سيخصّه المؤلف بدرس اجمالي للقداس والرتب الشرقية . ج . ل .

Hubert Pernot : Leçon d'ouverture du cours de grec postclassique et moderne et de littérature néo-hellénique. [*Collection de l'Institut néo-hellénique, fasc.* 11]. *Paris, Soc. d'édit.* « *Les Belles Lettres* » 1931. *Prix : 8 fs.*

امثولة افتتاحية لدرس اللغة اليونانية المتأخرة عن العصر المدرسي واللغة اليونانية العصرية ، ودرس الآداب اليونانية الحديثة

ان « الحاضرة الجامعية » في باريس اغتنت مؤخراً بانشاء « بناية يونانية » . فأسس ، والحالة هذه ، منبر جديد للادب اليوناني باشتراك الحكومة اليونانية وجامعة باريس . ولم يكن هناك اجدر من الاستاذ هوبر پرنو بان يُعهد اليه بهذا المنبر . وها اننا نطالع امثولته الافتتاحية او توطئته لدرس اللغة اليونانية المتأخرة عن العصر المدرسي واللغة اليونانية العصرية ، ودرس الآداب اليونانية الحديثة . يدرس ذلك عن اطلاع واسع على الآداب الحديثة وباسلوب شائق لذيذ يكتسب له ، دون شك ، كثيراً من الحذّار ، وللآداب اليونانية الحديثة كثيراً من المعجبين . ي . ك .

Islamica, *vol. V, fasc.* 5. *Leipzig, Verlag Asia Major.*

مجلة الاسلاميات : الجزء الخامس من المجلد الخامس

مما يجدر بالذكر في هذا الجزء تتمة التعليق البليغ على كتاب « الاضداد » لقطرب . ثم درس في تهمة المحامي في الشرع الاسلامي . واخيراً درس مفيد في لغة ابن ميمون الفيلسوف الاندلسي اليهودي ، ولم تكن لغته موافقة للقواعد كل الموافقة . هـ . ل . . .

معجم الحيوان

بقلم الفريق امين المعلوف

هدية المقتطف السنوية ١٩٣٢ ، ق ٨ نحو ٣٠٠ ص

مؤلف الكتاب معروف بما نشره في المقتطف من المقالات التي استنتجها من رحلاته واختباراته في بلاد سورية ومصر والسودان والعراق ، وهو من

اعضاء المجمع العلمي الدمشقي ، بدأ نشر مقالاته على الحيوان في تشرين الاول سنة ١٩٠٨ وواصلها على مدى سنوات وجمعها اخيرًا مبوّبةً ومرتبةً على شكل القاموس بالعربية والغرض منها « تحقيق الفاظ وردت في كتب اللغة العربية وصحة ما يقابلها بلسان العلم الحديث » . . في الكتاب لائحة المؤلفات التي استعان بها المؤلف ، قال : « ان جميع الاسانيد التي ذكرتها كانت من المؤلفات التي اخذت عنها بالذات فنسبت كل قول الى قائله . . . واذ لم يكن هناك اسناد بل كانت اللفظة مما وصلتُ اليه بالبحث والاستقراء . فقد اتيت بادلتي على ذلك . . . وقد توخيت ايراد افصح الالفاظ اولًا ثم الفصيح ثم ما عرّبته العرب ثم المولّد ثم ما عرّبه المولدون ثم العامي وما عرّبته العامة . »

معجم الحيوان مقسوم الى قسمين وقعت بينهما سلسلة تصاوير متقنة تساعد على تحقيق هوية الحيوان الموصوف في الكتاب وعدد الحيوانات المحققة فيه يزاهي ١٤٠٠ . وردت اسماؤها في القسم العربي وهو الاول ص ١—١٧ يتلوها الاعداد الدالة على مراجعها في القسم الثاني من الكتاب ص ١—٢٨٦ حيث سلسلة الاسماء موضوعة بالترتيب الابجدي اللاتيني.

اما منفعة الكتاب فهي في تمهيده السبيل الى وضع مادة من مواد القاموس العربي الكبير المرغوب فيه ، وعدد ١٤٠٠ لفظة علمية ثابتة ليس من الامر البخس في تقديرات اللغة . وللكتاب منفعة ثانية : فهو يقرب من العامة علم الحيوان ويلفت نظر القراء الى ناحية من نواحي المخلوقات لم يهملها السلف اهمالنا اياها . وناهيك عما يفيدنا علمنا الحيوان من غنى شعور وعواطف تقري المخيلة والشاعرية وتفتق في ابن آدم الغرائز التي وضعها في قلبه مبدع الكائنات ليقرأ سفر الطبيعة الجليل ويفقهه في علله ومعلوماته.

ولولا ضيق المقام لتوسعنا في رواية مواضع عديدة من كتاب المعلوف على الحيوان ولكن لا بد من ان نأتي ولو بسطر بالايجاز مما كتبه على الحيوان الذي سماه ابن يومه فيكون انموذجًا لما في الكتاب من المواد الجميلة المفيدة.

« ابن يومه . ابنة اليوم : فصيلة بنات يومها او بنات اليوم هي من رتبة عصبية الاجنحة يقال للواحدة منها ابن يومه او ابنة اليوم وهي دويبة طويلة الجسم لونها الى البياض او الصفرة

اجنحتها طويلة مثلثة ومرتفعة الى فوق في وقت الراحة ، ينتهي مؤخرها بخطين في الذكور وبثلاثة خطوط في الاناث ، وهي تولد عند افول الشمس وتموت عند شروقها.»

اليس في من سطر هذا الوصف فطنة العالم ولطف الشاعر ? فشكراً للفريق امين المعلوف بما سطره وقرب به الينا معرفة الحيوان. ف ت.

الهلال في اربعين سنة ١٨٩٢—١٩٣٢

عنيت بنشره ادارة الهلال . قطع ٤ ص ١٦٤ مصوّر

تصفحنا هذا الكتاب الجديد والقديم معاً فراقنا موضوعه ، وهو خلاصة ما اتخذته مجلة الهلال ، منذ نشأتها الى يومنا ، عنواناً لحركتها الفكرية ، وهدفاً لمقاصدها في سبيل مبادئها ، ان كانت هناك مبادئ بحصر المعنى ، ترشد سير مجلاتنا العصرية فلا تزيح عنها على مدى الزمان . لا شك ان الهلال بقدمها واقبال القراء عليها فيما يجدون فيها من تصاوير متقنة ومقالات متنوعة موقعة باسماء رجالات لهم صيتهم في عالم الادب والسياسة انما هي في مقدّمة المجلات العربية العصرية . وقد انت نظرنا في فهرسها امران : اولاً لائحة اعمال مؤسسها المرحوم جرجي زيدان ، وهو دليل واضح على قوة الارادة والمواهب العقلية والاجتهاد الحقيق بالثناء فيما اداه من الخدمات للمدنية ، في مظاهرها الشرقية والغربية معاً . اما الامر الثاني فهو المقال الاخير الموقع باسم اميل زيدان نجل المؤسس وعنوانه « خدمة الفكر في عصر المادة » . ان لكلمة الفكر والمادة معاني محدودة ، وهل « حضارتنا الحالية » مصابة حقيقةً « بتخمة مادية » اكثر مما كانت مصابة به الحضارات الماضية ? واذا تكلمنا عن الحضارة ايجوز ان نطلق تلك اللفظة طرّاً على بلاد الله كلها فننسب التخمة المادية الى بلاد فرنسة مثلاً كما ننسبها الى بلاد روسية ، ونتكلم عن عصر المادة في بلاد العرب كما نتكلم عليه في بلاد اليابان او في جنوبي افريقية ? وهل في الحقيقة ان خدمة الفكر والفن ، في الغالب ، نصيبهم كنصيب « برليوز الموسيقي على فراش الموت» ينتظرون من خروجهم من الفانية دخول مؤلفاتهم في حياة النجاح ? على اننا نخطئ في تضييقنا على الكاتب وحصر اقواله وتمحيص آرائه فيما اتاه القراء.

• كصفحة من صفحات الصحافة » وبين الصحافة والنشرات العلمية بون شاسع .

وقد نوافق على الحكم الذي اصدره بعضهم (ص ٤١) على الهلال اذ قال انه «مثال الفطنة لاذواق القراء والنشاط لارضائهم .» ف.ت .

مرشد الوعاظ والكتاب الى كنوز ايات الكتاب

للارشمندريت بطرس ابي زيد

الجزء الاول . قطع ٤ ، ص ٦٦٣ ؛ مطبعة القديس بولس في حريصا

ان الارشمندريت بطرس ابي زيد الراهب الباسيلي المخلصي معروف بترجمته الى العربية كتاب الاب غيتون الافرنسي في العفاف ، وقد اظهره بالطبع سنة ١٩٢٠ . وها انه اهدى الينا هذا السفر الجليل فرأينا قبل ان نعرفه الى القراء ان نقدم عليه كلمة في موضوعه لما فيه من الاهمية العظمى .

دعاه المؤلف مرشدًا وترجم عنوانه بالافرنسية «*Guide des Prédicateurs et des écrivains pour la recherche des textes de la Bible*»

وقد اعتاد الافرنج حديثًا ان يسموا هذا الجنس من التآليف الوفاق او المطابقة «*Concordance*» وهو مجموع الآيات الكتابية المتصلة بعضها ببعض بصلة ما لفظية او معنوية . وهذه الآيات مبوبة ومرتبة بحسب الابجدية ، مع الاشارة الى موضعها في الكتاب المقدس فصلًا وعددًا ، يرجع اليها القارئ كما يرجع في المعاجم الى معرفة الالفاظ . وهذا المجموع على نوعين : منه لا يراعى فيه سوى معنى اللفظة من غير الاهتمام بالقرائن ، وهو المجموع اللفظي ؛ ومنه ما فيه تُجمع الايات تحت عناوين تشمل الافكار والمواد وهو المجموع المعنوي ، وانما كلامنا عليه .

فاذا اخذت مثلًا مادة بتولية رأيت تحت عنوانها ما يلي (ص ١٠٤ وما بعد) بتولية وتبتل وبكارة وعزوبة وطهارة وعفة ؛ وقد يجدها القارئ في صفها ، في المجموع ، مع آيات خاصة بها على ما فيها من فروق بينها وبين البتولية . ثم تحت العنوان بتولية المذكور يجد القارئ البنود الستة التالية : ١ً البتولية او العفة هي احدى المشورات الانجيلية . — ٢ً الترصية بالعفة . — ٣ً فضل العفة وفوائدها العظيمة . — ٤ً تفضيل البتولية والعزوبة على الزواج . — ٥ً ابطال العفة . — ٦ً وسائل لحفظ العفاف .

وكل بند من هذه البنود يأتي بعدة من الآيات الكتابية اما بكاملها او بالاشارة الى موضعها عند بدءه ونهايته . وغايتها ان تؤدي للكاتب او للواعظ مادة التعليم او الارشاد . ولا حاجة الى الاسهاب في تبيان منافع هذه الآيات المضمومة ، عديدةً ، تحت عنوان واحد فما ان يقرأها الواعظ ويذوقها في قلبه ، ويتبحر بها حتى تتوفر لديه موادّ محاضرة او عظة في الفضيلة اللائكية تثمر في قلوب السامعين اثار الخلاص . ان هذا النوع من المجموعات قديم في بيعة الله ، وينسبون الى القديس انطونيوس البادراني اول مجموعة معنوية ؛ فقد الفها في حياته بين السنة ١١٩٥ و١٢٢١ ، وطبعت فيما بعد في باريس سنة ١٦٤١ ، وفي كولونية ١٦٤٧ ، وكانت تلك المجموعة باللغة اللاتينية . وفي القرن السادس عشر وضعت مجموعة باللغة الالمانية على التوراة الالمانية التي ترجمها لوثار ، ووضعت ايضاً المجموعات باللغات الافرنسية والانكليزية وغيرها من اللغات الاوروبية ؛ وهناك طبعات للكتاب المقدس عُلّق في هوامشها تقييدات تشير الى الآيات الممكن مطالعتها في المعنى ذاته .

اما في اللغة العربية فلا فهارس كبيرة مطبوعة للكتاب المقدس سوى فهارس بوست البروتسطنتي ، وقد سماها الوفاق وهي لفظية . وهناك فهارس في طبعة التوراة للاميركان العربية معلقة على هوامشها ، فتشير الى المواضع الموافقة للآيات التي علقت عليها .

وترجم الآباء اليسوعيون الفهارس المعنوية في آخر ترجمتهم العربية للكتاب المقدس اخذاً عن النسخة الموجودة في آخر التوراة اللاتينية الرومانية ، وهي مختصرة ترجع بالمطالع الى عدد الفصول والابيات مكتفية بجمع الاعداد تحت العناوين .

فكنا بحاجة الى مجموع فهارس معنوية كاملة سهلة المطالعة وها ان الضالة المنشودة قد وجدناها بفضل وغيرة الاب بطرس ابي زيد ، وعناية مطبعة الآباء البولسيين في حريصا .

***

لم يظهر من الكتاب الا جزؤه الاول لكنه يمكننا من الحكم عليه

بكامله لان الجزء الثاني سوف لا يكون دون الاول قيمة قلب وقالب.

صدر الاب بطرس ابو زيد كتابه برسالة غبطة البطريرك كيرلس التاسع ، ورسالة قدس الارشمندريت اغابيوس نعوم الرئيس العام على الرهبانية الباسيلية المخلصية ، ونال مع بركة الرؤساء رضاهم الذي لا بد منه للمؤلفات الدينية عامة والكتابية خاصة.

ووطأ للمجموع بمقدمة تكلم فيها على الوعظ ومزاياه السامية ومنافعه واصوله وشروطه ومعلميه ، وفي مقدمتهم الانبياء والرسل ، وعلى الاخص سيدنا يسوع المسيح الاله المتجسد الذي كلمنا في كتبه . فالايمان بالسمع والسمع بكلمة الله ، وبالوعظ قامت الكنيسة وازدهرت القداسة وارتد الخطأة واهتدى الكفرة . ومن ثم ، على الواعظ ان يكون متبحراً في الكتاب المقدس فيعزز به كلامه ويملك بقوته قلوب السامعين ويوجهها جهة الصلاح ، والواعظ هو الاب والهادي والطبيب.

ومضى المؤلف يعدد النصائح للوعاظ داعياً اياهم الى استعمال كتابه شارحاً طريقته ، وهي سهلة المنال كما عرضنا لها في بدء الكلام.

لا نجهل ما يعتور سير هذه المؤلفات في بلادنا من المشاكل الاقتصادية لقلة عدد الذين يقبلون على شرائها . ولا بد للمطابع ان تضحي كثيراً للقيام بمثل تلك الطبعات مع الامل اليسير بالاستعاضة عن النفقات . فلذلك لا نلومنَّ نفسي في ابداء ملاحظة ما غايتها لفت النظر الى نقص في الكتاب لولا ما يرجى منها من الخير لمستقبل اتمنى الا يكون بعيد الوقوع ، وهو ان تنفد طبعة الكتاب سريعاً فتعاد بحجم اصغر وحرف ادق فيتمكن المرسلون من الاستفادة منها في اسفارهم ، ولا يستثقلون حملها.

اما متن التوراة العربي الذي اعتمد عليه الجامع فهو متن الترجمة اليسوعية التي اصبحت كالترجمة الرسمية لابناء الكنيسة الكاثوليكية الناطقين بالضاد ، لما نالها من رضى الكرسي الرسولي واحبار الطوائف الشرقية المتحدين معه بالايمان.

ف . ت .

بلوغ الارب في علم الادب

هي رسالة وجيزة لحضرة القس بولس سباط ذكر فيها مخطوطة كان قد اكتشفها في بيروت من كتاب « بلوغ الارب في علم الادب » المطران جرمانوس فرحات فدرسها وحلّل اقسامها على طريقة مفيدة ، ناشرًا اربع صفحات منها في لوحتين مع صورة المؤلف . ثم طبع ذلك في نشرة المعهد المصري للسنة الدراسية ١٩٣١- ١٩٣٢ ، تذكارًا لمرور مئتي سنة على وفاة المطران . فاستحق شكر ارباب العلم العربي عامّة وابناء حلب خاصّة .

مآثر عريضة

للخور اسقف بطرس حبيقه

٤٨ ص متوسطة – المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٣٣

هو الجزء الاول من ترجمة غبطة البطريرك انطون بطرس عريضه ، جرى فيه المؤلف على طريقته في ترجمة حياة المثلث الرحمات البطريرك الحويك . فذكر في هذا الجزء ماجريات السنة الاولى منذ انتخاب البطريرك الحالي ، مختصرًا حياته السابقة ، ذاكرًا ما اتصف به من صفات الزعامة والعناية بالشؤون الخاصة والعامة ، وما كان من العلاقات بينه وبين فرنسة ، وبينه وبين ابنائه المقيمين والمهاجرين . مع نماذج من كلامه .

* بشري مدينة المقدمين * ٣٦ ص . متوسطة ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٣٢ – هي الاسانيد التاريخية والتقليدية التي نشرها حضرة الخوري اغناطيوس خجع على صفحات « المشرق » في سنته الفائتة ، جمعها في حدة وقدمها الى صاحب الغبطة البطريرك الماروني .

* مكتبة العرب * ٤٧ شارع الفجالة ، مصر – فهرس السنة الثامنة والعشرين من قائمة المطبوعات والكتب الموجودة في مكتبة العرب لصاحبها الشيخ يوسف توما البستاني . وهو مبوَّب تبويبًا حسنًا مذكورة عناوين اقسامه باللغتين العربية والفرنسية – يُرسل مجانًا لمن يطلبه .

اهم حوادث الشرق في شهر

١٥ ك ١ ١٩٣٢ – ١٥ ك ٢ ١٩٣٣

لبنان وسوريا – توفي البطريرك ارسانيوس حداد، منتخب اللاذقية على طائفة الروم الارثوذكس. وتمّ اتفاق السادة المطارنة على المناداة بالسيد الكسندروس طحّان، منتخب دمشق، بطريركاً.

* وصل المفوض السامي، السيد هنري پونسو، في ٦ ك ٢، عائداً من جنيف بعد ان القى بيانه السنوي امام لجنة الانتدابات في جمعية الامم.

* منع التعامل بالنقود الفضية التركية في سورية.

جبل الدروز – اجرى الاحصاء مؤخراً فكانت النتيجة ان سكان الجبل يبلغون ٦٤,٥٤٠ منهم ٣٣,٥٦٤ من الذكور و٣٠,٩٧٦ من الاناث. ويبلغ عدد الذكور المتعلمين ١١,٧١١ وعدد الاناث المتعلمات ١٠٤٧. اما عدد الدروز فيبلغ ٥٥,٤١٨ وما تبقى فمن الطوائف المختلفة.

مصر – افتتح البرلمان دورته الجديدة في ١٥ كانون الاول.

* عدّل اسماعيل صدقي باشا وزارته على شكل يوافق الظروف الحاضرة.

تركيا – وجّه مصطفى كمال باشا رسالةً الى الشعب اليوناني بمناسبة عيد الميلاد نوّه فيها بالصداقة الوثيقة بين تركية واليونان.

جزيرة العرب – ملخص اخبار عسير، عن طريق المملكة السعودية، ان الثوار اصيبوا بالفشل في مواقع كثيرة.

المطبعة الكاثوليكية المدير المسؤول : يوسف ماهر